القافلة

شعبان ١٤٠٩هـ - مارس/ابريل ١٩٨٩م



القافلة

THE CARAVAN - MARCH/APRIL 1989

شعبان ١٤٠٩هـ - مارس/ابريل ١٩٨٩م
العدد الثامن - المجلد السابع والثلاثون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

*

توزع مجاناً

*

المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: إسماعيل إبراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبو كشك

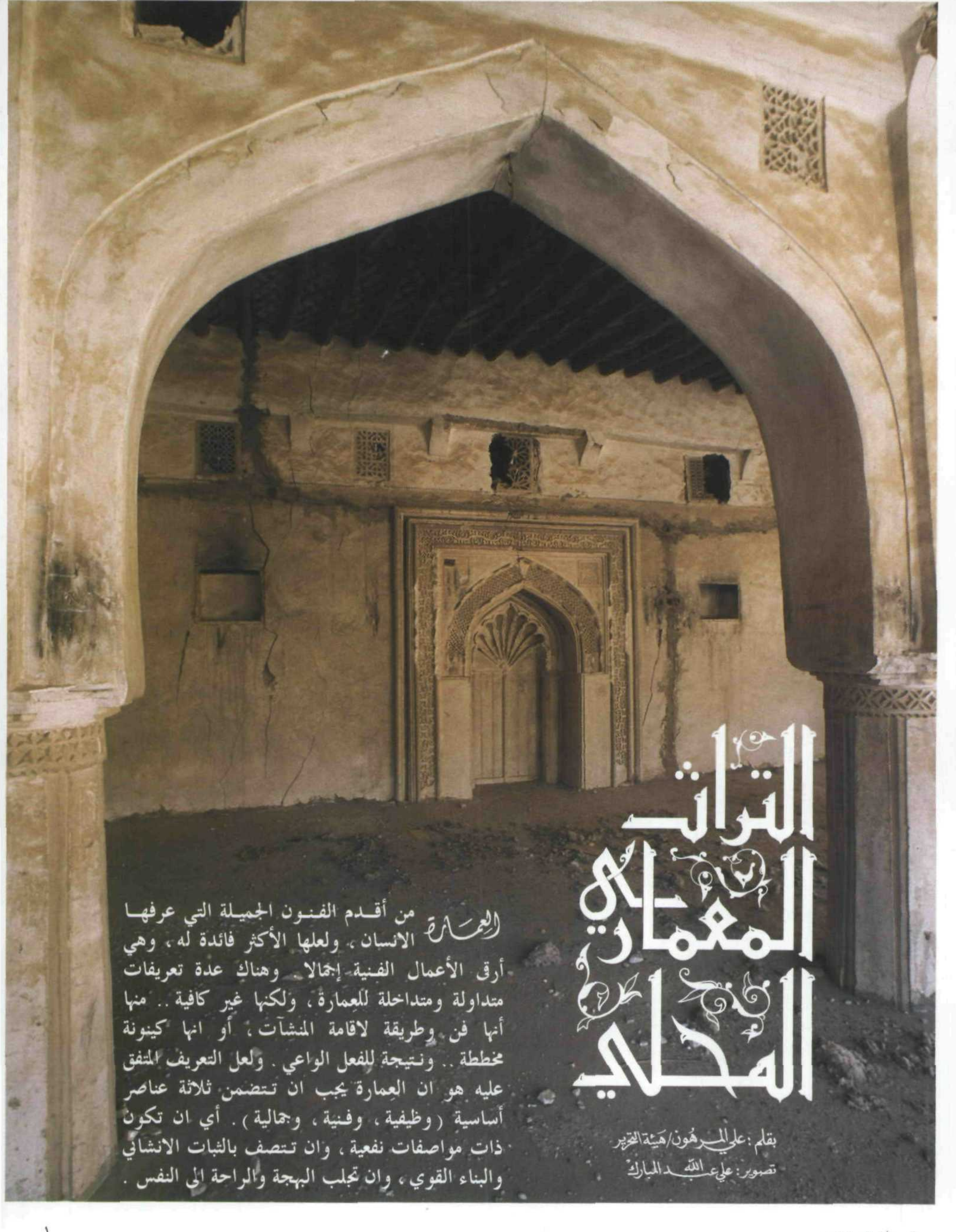
*


التراث المعماري المحلي
قصر النظر
روائع عصر البرونز
اصل المادة وماهيتها
الضربة القاضية

الغلاف الخارجي: دور السكن القديمة جداً توفر جواً أسرياً حميماً يسمح بتجمع الافراد حول مواقد النيران الشتوية، التي تعلوها دلال القهوة العربية.

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٨٧٥٦٣٩٢

صممت وطبعت بمطابع الوفاء بالدمام
Designed & Printed By Al-Wafa Printing Press - Dammam



التراث المعماري المحلي

بقلم: علي المرهون/هيئة التحرير
تصوير: علي عبد الله المبارك

العمارة من أقدم الفنون الجميلة التي عرفها الانسان، ولعلها الأكثر فائدة له، وهي أرقى الأعمال الفنية إجمالا. وهناك عدة تعريفات متداولة ومتداخلة للعمارة، ولكنها غير كافية.. منها أنها فن وطريقة لاقامة المنشآت، أو انها كينونة مخططة.. ونتيجة للفعل الواعي. ولعل التعريف المتفق عليه هو ان العمارة يجب ان تتضمن ثلاثة عناصر أساسية (وظيفية، وفنية، وجمالية). أي ان تكون ذات مواصفات نفعية، وان تتصف بالثبات الانشائي والبناء القوي، وان تجلب البهجة والراحة الى النفس.

وتاريخ العِمارة يتعلق عموما بمبان قاومت عاديات الزمن طويلا ، وبقيت شهادة إثبات على ما يعتري الأساليب المعمارية من تطور وتبدل تبعا لتطور الحياة اقتصاديا واجتماعيا وفنيا . وكانت هذه المباني على درجة عالية من الأهمية مثل القلاع ، والقصور ، ودور العبادة ، الخ . وتتم دراسة التطور المعماري لكل حضارة أو منطقة معينة ، عن طريق ملاحظة الملامح العامة لكل مرحلة ، وتطور اساليب البناء من مرحلة الى أخرى ، عبر توالي الأحقاب التاريخية المتعاقبة . ويعتمد المدخل التقليدي لدراسة العِمارة ، على إدراك ماهية النماذج المعمارية ، والتركيز بشدة على إبراز الفوارق التفصيلية بين الأنماط المعمارية السائدة ، من بلد لآخر ، ومن مرحلة حضارية معينة الى أخرى لاحقة طغت عليها أو تأثرت بها . أما الدراسات المعمارية الحديثة ، فتركز على اثر التِّقْنِيَّة في تطوير صناعة البناء . ولعل من بين أهم الملامح في هذا الصدد ، تحرير الجدران من وظيفتها التقليدية في حمل الأثقال ، والاستعاضة عنها بالجسور الحديدية أو الفولاذية ، مما ساعد المصمِّم المعماري الحديث في الإكثار من عدد النوافذ ، وبناء الطوابق المفتوحة التي تعطي الانطباع بالانطلاق والاتساع الرحب ، مما يريح الناظر والنفس معا .

الهوية المعمَارية

ان الفنون المعمارية ، هي الصَّدى المعبِّر عن الشخصية الاجتماعية والجغرافية والثقافية لأي مجتمع ، وفيها تتمثل القدرات الفنية والمستوى الذي بلغته ثقافة ما في سلم المدنية والحضارة عموما . وغالبا ما تأتي الصِّيَغ والأساليب المعمارية ، السائدة في بلد ما ، نتيجة لسلسلة متصلة من الخبرة الانسانية الطويلة ، التي تراكمت عبر تعاقب الأجيال التي تعيش في منطقة معينة ، بأسلوب « الصح ـ والخطأ » أولا ثم بأسلوب منظم ومنهجي ثانيا . ومن الثابت ان تلك الأساليب المعمارية التقليدية ، تعتمد على عناصر واعتبارات محلية ، سواء من جهة مواد وخامات البناء الانشائية ، أو من جهة العناصر الوظيفية والفنية ، أو النواحي الجمالية التي



لقطة ذكية تبين تفاعل المصور مع العناصر الجمالية والوظيفية التي تميزها الأعمدة ذات الأقواس النصف دائرية .

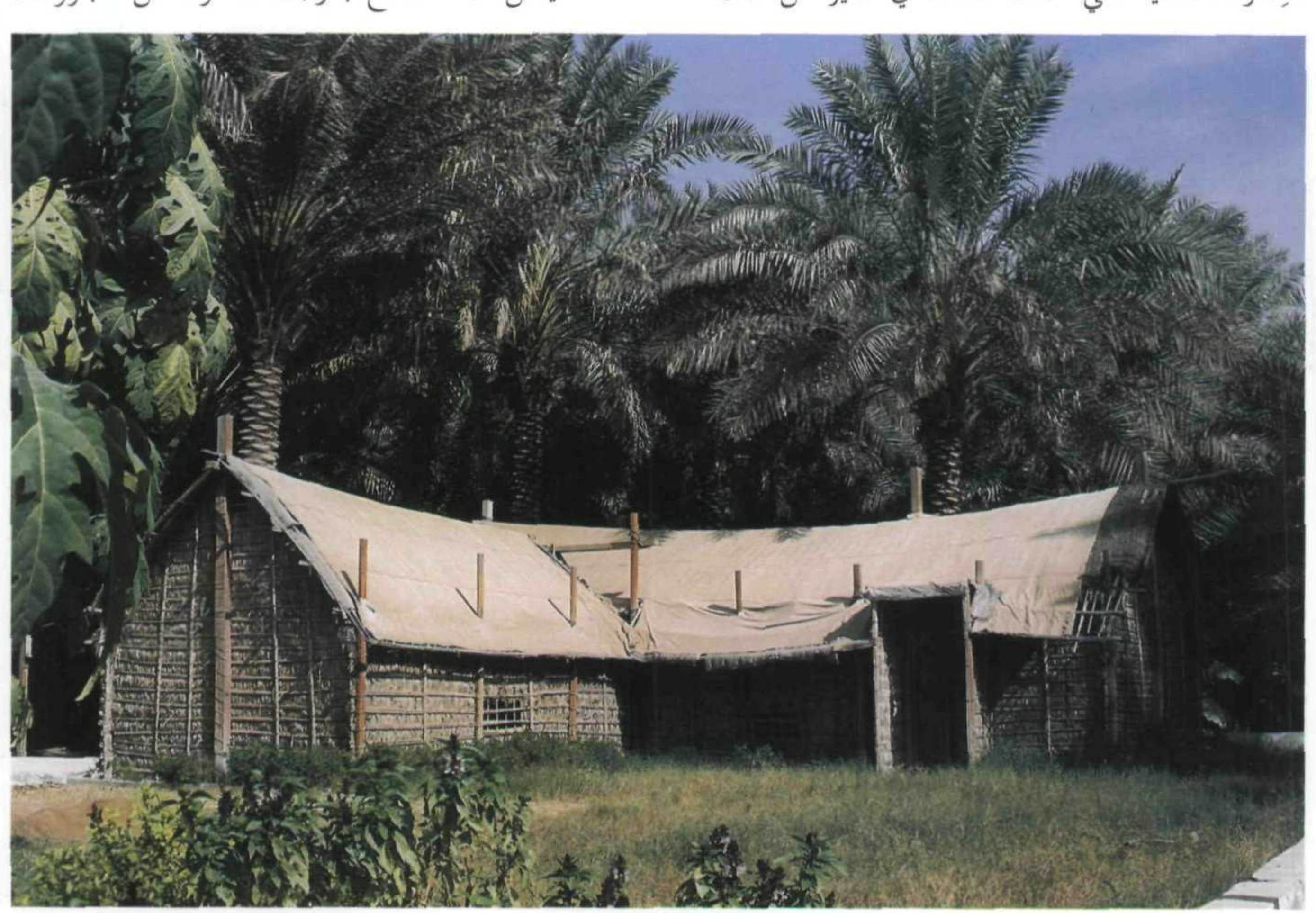
يستلزمها المسكن ، الذي هو حاجة اساسية من حاجات الانسان ، مهما اختلفت درجته في سلم الحضارة . فالانسان قد سعى الى إشباع حاجته من المسكن منذ ان وجد نفسه وحيدا وجها لوجه امام الوحوش الضارية ، وعوادي الطبيعة من حرارة لافحة ، وبرودة قارسة . فالحاجة للمسكن تأتي مباشرة بعد الحاجة للطعام في سلم الأولويات الانسانية . وهذه استجابة لغريزة « حفظ النوع » بطريقة غير مباشرة ، اذ ان المسكن هو الوحدة الاساسية في بناء التجمعات السكانية ، حيث تعيش تحت سقفه أسرة صغيرة أو كبيرة ، وتشعر في داخله بالأمان

النفسي والعاطفي اللازم لاستمرار الحياة . فلا عجب إنْ أصبحت الأنماط المعمارية المتميزة سمة من سمات الحضارات الانسانية المختلفة .

العِمارة المحلية

العِمارة الاسلامية احتلت مكانا مرموقا في التاريخ المعماري عبر العصور ، وبرزت كنموذج معماري متفرد ، يتمتع بجميع ميزات الجمال الخاصة ، والبِنْيَة الفنية المتكاملة ، والمتانة الانشائية ، التي تتفق مع ظروف البيئة والمتطلبات المعيشية للسكان . وقد لبت فنون العِمارة الاسلامية ، جميع الاعتبارات الناجمة عن العوامل المناخية والاجتماعية ، والاقتصادية ، وحتى الاعتبارات الأمنية والعسكرية والسياسية . وتعتبر العِمارة المحلية التي كانت سائدة في كثير من مدن المملكة وقراها امتدادا للعِمارة الاسلامية شكلا ومضمونا . ورغم ان الهجمة المعمارية الحديثة ، قد اكتسحت في طريقها معظم ملامح العِمارة المحلية في كثير من المدن التاريخية ، في ظل ظروف التغير الشامل الذي تشهده البلاد ، إلا انه يمكننا إرجاع العوامل الرئيسية التي كانت تحدد الأنماط المعمارية المحلية ، التي اعتمدها أجدادنا ، في بناء منازلهم ، الى الأمور التالية :

العوامل المناخية : يلعب المناخ دورا هاما في طريقة بناء المنازل العربية الاسلامية ، من حيث التصميم ، واتجاهات النوافذ للتهوية ، والممرات ، والفراغات الداخلية ، مع الأخذ بعين الاعتبار اتجاه حركة الرياح ، صيفا وشتاء ، مما يحقق الحد الأعلى من الفاعلية في التعامل مع الظروف المناخية السائدة من حرارة و برودة . فالمناطق الحارة مثلا يمكن ان تتمتع بدرجة معقولة من البرودة ، أو



نموذج لجناح سكني متكامل تم بناؤه بجريد وسعف النخيل بمزرعة بمنطقة الاحساء .

« التكييف الطبيعي » ، من خلال الاستفادة من اتجاهات الريح عبر الأبواب والأقواس والفتحات أو النوافذ داخل دور السكن . أو عن طريق بناء « أبراج الهواء » العالية التي تعمل « كمروحة شفط كبيرة » تجلب الهواء المنعش الى الداخل ، وتسحب الهواء الساخن الى الخارج ، مستفيدة من ظاهرة إحلال التيارات الهوائية الباردة مكان الساخنة . وكذلك التمتع شتاء بأشعة الشمس الخارجية ، من خلال الباحة المركزية التي تتوسط الفناء ، والسطوح ، والثقوب الدائرية في الغُرَف ، والزخارف الجصية أو الخشبية المتشابكة . كما استخدموا بنجاح منقطع النظير طريقة « العزل الحراري » وذلك عن طريق بناء الجدران السميكة ، التي تساعد على حفظ درجة حرارة معقولة داخل البيت .

ولقد اثبت استخدام الطين وهو المادة الرئيسية للبناء في ذلك الوقت ، والجص وهو نوع من الصخور الكلسية المحروقة بأفران أولية بأنهما مادتان مثاليتان لبناء الجدران ، وانجاز الزخارف الجمالية المتعددة الأشكال والأسماء . ولتثبيت الأحجار البحرية بمختلف أحجامها وأشكالها ، وكذلك لبناء السقوف المستوية ، وإسناد جذوع النخيل أو الأخشاب التي كانت تستعمل كجسور بين الأعمدة ، أو كأرضية للسقوف والأدراج .

والطين من المواد الجيدة للعزل الحراري ، حيث اننا نجد انه

الحس الجمالي البارز في العمارة المحلية ، وخاصة الزخارف الجصية والخشبية والزجاجية ، يعطي البيت العربي شكلا مميزا . ◄

يمثل « الساباط » نقطة التقاء للدروب المتفرعة داخل الحارة العربية التقليدية . ▼

عندما ترتفع درجة الحرارة مثلا الى ٣٣°م مئوية في الخارج ، تهبط داخل منزل مصنوع من الطين الى ٢٤°م ، في حين ترتفع الى مقدار ٣٨°م مئوية داخل منزل اسمنتي حديث خال من المكيفات .

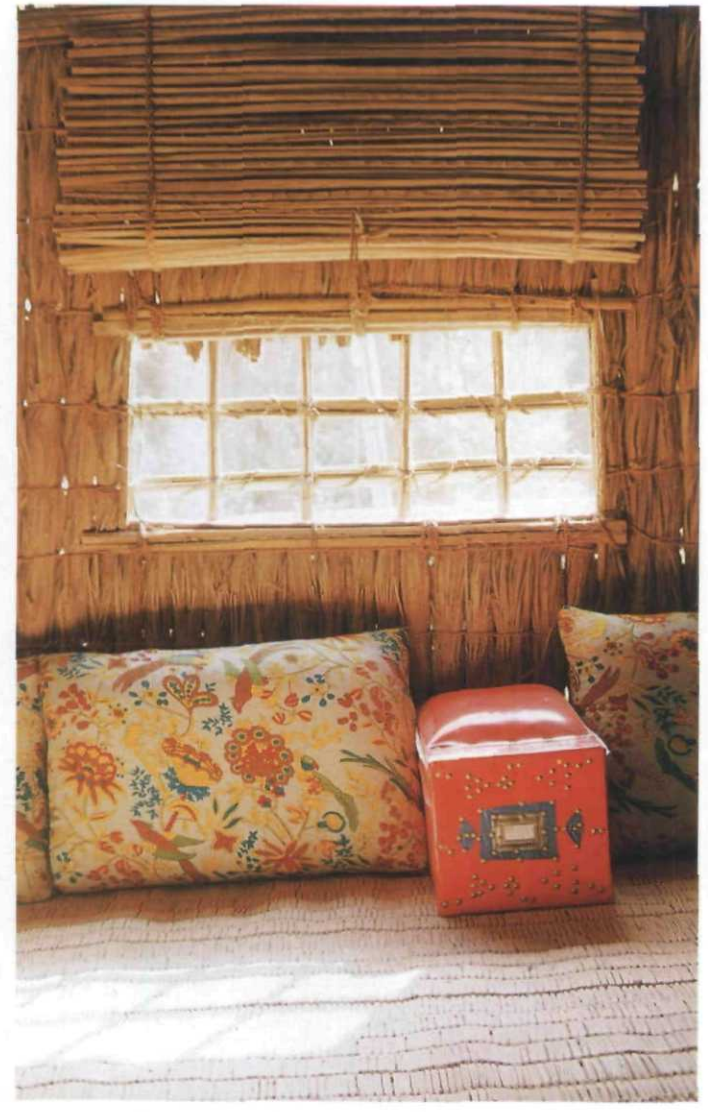
العوامل الاجتماعية : تحتل العادات الاجتماعية ممثلة في العلاقات الأسَرية ، والتقاليد والتراث ، دورا هاما في تحديد إطار المنزل العربي ، سواء على المستوى الأسَري الخاص أو على نطاق الحي . فالاتساع هو اهم ما يميز البناء ، بالاضافة الى الاستقلالية في الغرف وردهات الاستقبال . وذلك لأن المنزل قد يضم رب الأسرة وزوجته وأولاده المتزوجين . وغالبا ما يضم المنزل العربي النموذجي حديقة منزلية داخلية ، تحاط عادة بالأزهار تتوسطها بركة أو نافورة صغيرة للماء ، مما يوفر مكانا للراحة والاستجمام للقاطنين ويربطهم مباشرة بالطبيعة . ويؤلف الحي التقليدي وحدة معمارية متجانسة من المباني ، التي يلاصق بعضها البعض ، من جميع الجهات ، بينما تتجاور السطوح التي تمثل منفذ السكان للعالم الخارجي ، تجاورا يجسّد كل معاني الألفة والعلاقات الانسانية الحميمة التي تربط سكان الحي . وتساعد الأزقة والممرات على توفير الظلال للسكان ، أثناء تنقلهم وحمايتهم من حرارة الشمس ، كما يجد فيها الأطفال الأمكنة المناسبة للهو بأمان ، والتشرب بروح الحي .

العوامل الاقتصادية : تعكس الهيئة التي يظهر عليها البيت العربي التقليدي ، غالبا الوضع الاقتصادي للمالك ، ويشمل ذلك مِساحة البيت ومحتوياته ، وتوزيعاته الداخلية ، فبيوت الطبقة الميسورة مثلا تحفل بالزخارف الجمالية الأكثر عدداً وتنوعا مقارنة مع البيوت الأخرى . وفي استخدام المواد المتنوعة لعمل الأبواب والشبابيك والرواشن والأدراج الخ .

وتؤثر العوامل الاقتصادية على مجمل الأحوال المعيشية للسكان ، ومدى توافر المواد الخام اللازمة للبناء . ولقد أجاد الانسان في الجزيرة العربية ، استخدام المواد الخام المتوفرة في بيئته أيما إجادة ، فنرى سكان السواحل يستخدمون ، الشرائح الحجرية المعروفة (بالفرش) ، كما يستخدمون الحجر البحري بأحجامه الكبيرة والمتوسطة والصغيرة ، في جميع مراحل البناء ،



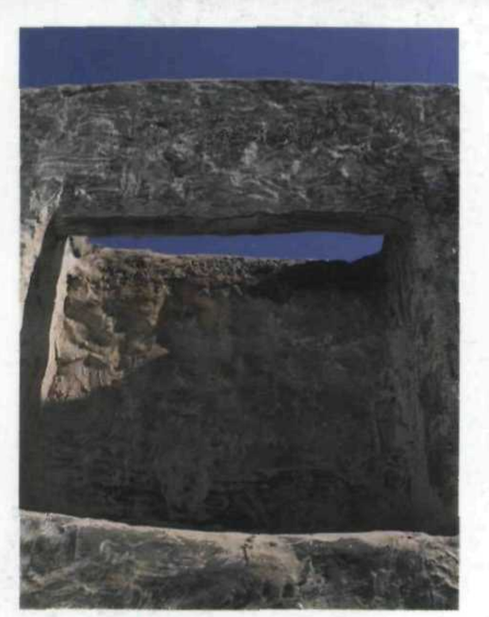
الحرف العربي كان ، وما يزال بمختلف أنواعه من كوفي وثلث وغيرهما مصدر إلهام فني ، للزخارف المعمارية .



للتهوية في المنازل العربية أهمية بارزة ، وذلك للاستفادة القصوى من الضوء والمناخ السائد . وتحقق النوافذ المصنوعة من الجريد هذا الغرض بنجــاح تــام .



عتمد سكّان الجزيرة العربية وخاصة اهل الواحات على خامات متعددة من سعف وجريد وجذوع وليف لتوفير مستلزمات دور سكناهم الدائم منها والمؤقت .



يقتنص « الباقدير » اي صياد الهواء ، نسمات الليل المنعشة ، في الصيف ويدفعها لداخل المنزل .

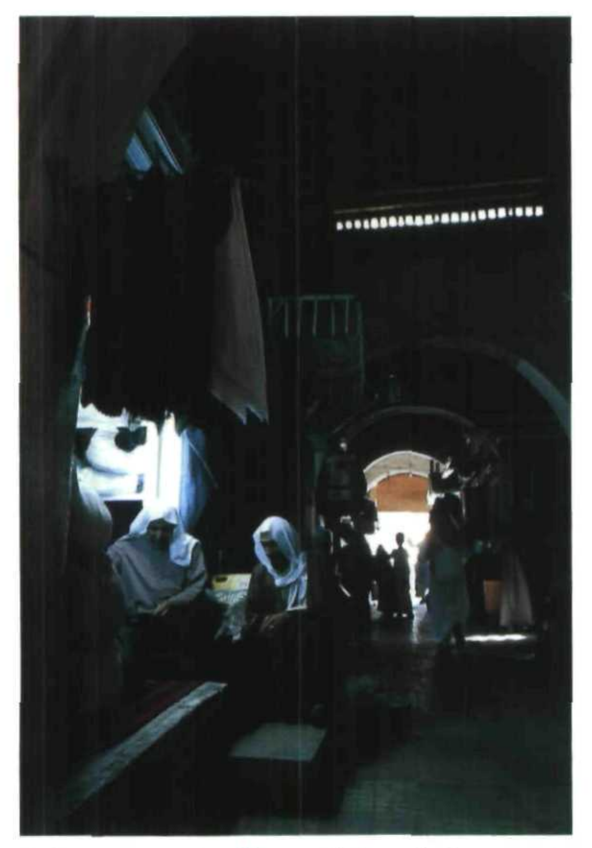


في طرقات الحارة الضيقة ، يمارس الاطفال لهوهم البريء بعيدا عن خطر المركبات في الشوارع الرئيسية .

حيث يستخدم الكبير منه لعمل الأساسات والجدران السميكة ، والمتوسط لعمل الفواصل وإقامة الأعـمدة ، والصغير لبناء السقوف المحمولة ولأغراض الحشو . ويتم استخراج هذه المادة الأساسية في البناء من قاع البحر ، من قبل جماعة متخصصة في هذه المهنة . كما تفننوا في الاستفادة من أشجار النخيل المتوفرة محليا ، فاستخدموا جذوع النخيل ، لإقامة الجسور الحاملة للسقوف ، سواء على شكل جذع كامل ، أو عن طريق شريحة طولية مناسبة . أما الجريد فكان ، يتم تصفيفه على شكل حصيرة منتظمة ، تشد جوانبها الحبال المجدولة ، وتوضع على جذوع الاشجار ، لحمل السقوف . وكان دوره مشابها لدور أسياخ الحديد في ايامنا هذه . وكان سكان الجبال يستخدمون الصخور الصلدة لبناء بيوت متعددة الطوابق تعانق السحاب ، تتصف بالقوة



مبنى متكامل يحوي الكثير من نماذج العمارة الاسلامية ، يقف شاهدا على عراقة التراث المعماري بواحة الاحساء .



جانب من سوق القيصرية التاريخي بالاحساء، يبين مدى تلبية العمارة المحلية لمتطلبات الحياة الحرفية والتجارية.

والصلابة، واستخدم سكان الواحات الداخلية خشب اشجار «السِّدْر»، كعوارض سقفية في البناء. وكان الطين المستخرج من الأرض، والذي يمزجونه بالتبن، خير مادة لاصقة لديهم في البناء، ناهيك عن استعمال السعف اليابس لإقامة البيوت والأكواخ والأعراش، بمختلف الأشكال المستطيلة والمربعة والمثلثة، لمختلف الأغراض السكنية والعملية في الحقول والمزارع، وخاصة إبان فترة القيظ ومواسم الحصاد وجني محصول التمر.

العوامل الأمنية: تمثل الجدران العالية، صفة معمارية أساسية من صفات البيت العربي الاسلامي، وذلك لتلبية المتطلبات الأمنية، بكل منزل على حدة، وبالتجمع السكاني ككل ممثلا بالحي.

أما الأشكال الجمالية، المصنوعة من الخشب المزخرف والمحفور والمنضَّد والمظلل، فيجري وضعها على النوافذ والفتحات لتوفير الحد الاقصى من الخصوصية

لعبت الأقواس دورا متميزا في التراث المعماري المحلي، سواء على شكل منفرد، أو على شكل ثنائي أو ثلاثي أو أكثر.

لأهل المنزل ، في الوقت الذي تسمح فيه بنفاذ الهواء النقي وأشعة الشمس الى الداخل .

وتتعدد اسماء الزخارف الخشبية ، فهناك «المشربيات» و «الشناشيل» و «الشيش» والرواشن ، وغيرها الكثير من الأشكال والإطارات الخشبية ، التي تلبي مطالب عملية وجمالية في آن واحد .

ويؤلف الحي التقليدي عبر ترابط وتراص بيوته وحدة معمارية متكاملة من الداخل والخارج فله طرقاته وأبوابه الرئيسية التي يتم غلقها وفتحها حسب ظروف الأمن السائدة في كل وقت مما يعكس أهمية العامل الأمني في بناء التجمعات السكانية التقليدية .

إستلهام التراث المعماري

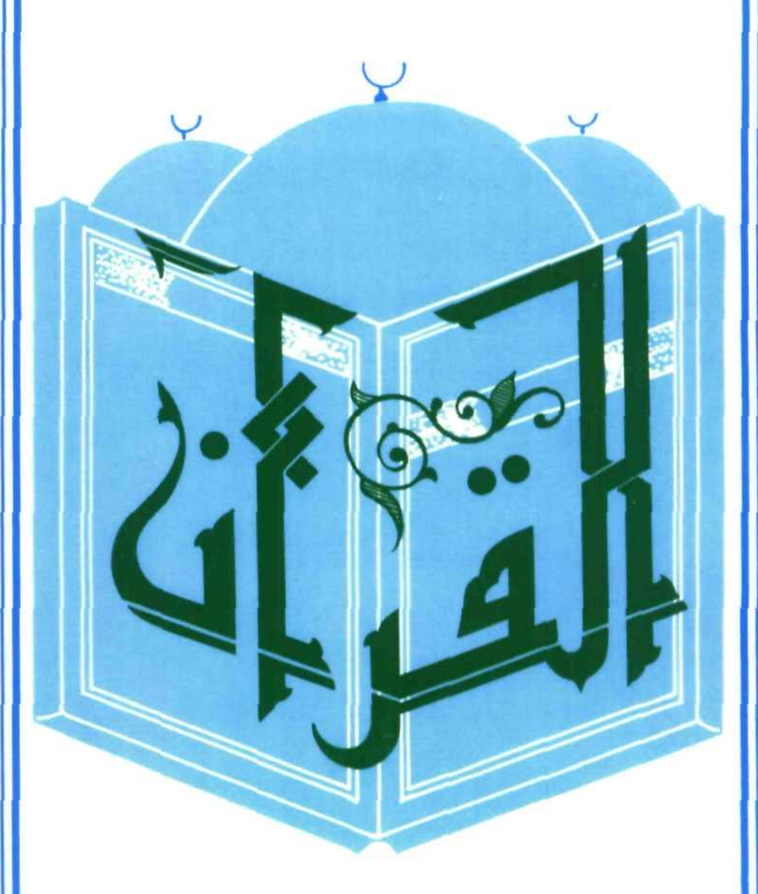
واكب سنوات التوسع العمراني الكبير الذي شهدته مناطق ومدن المملكة ، استخدام أنماط معمارية مختلفة وغير متجانسة ، مما أفقد المدينة العربية شكلها المعماري المميز ، وتشهد السنوات الأخيرة اتجاها معماريا جديدا يحاول المزاوجة بين أشكال العمارة الحديثة وفنون العمارة الاسلامية . ولقد تعدى الاهتمام بالتراث المعماري ، حدود الدراسات والأبحاث الأكاديمية الى الاهتمام الرسمي والشعبي ، حيث يحاول المصمّمون المعماريون إعادة اكتشاف عناصر الجمال والقوة ، التي لا زالت ماثلة امام أعيننا في النماذج المعمارية الكبرى التي خلفها التاريخ ، وربطها وظيفيا وجماليا بالفن المعماري الحديث . في محاولة لتطوير الحس المعماري في البلاد باستخدام وسائل التقنية الجديدة ، في ثوب معماري إسلامي جديد . وقد أخذت بعض المكاتب الهندسية بالمملكة على عاتقها هذه المهمة ، وبرزت بالفعل نماذج معمارية تحوي كل عناصر المتانة والجمال ، والخصوصية الثقافية معا ، مما يبشر بولادة حركة عمرانية جديدة ذات ملامح معمارية محلية ، تعيد للمدينة العربية شخصيتها المميزة ، التي كادت ان تفقدها في خِضَمّ التطورات الكاسحة التي شهدتها في السنوات الأخيرة □



الأثر المعماري يستمد جزءا من جماله من مدى موائمة شكله المعماري مع الخلفية الطبيعية المحيطة به .

القصة الرمزية في القرآن

بقلم: الأستاذ/محمد قطب عبد العال/مكة المكرمة



يأتي القصص القرآني على نوعين: نوع ورد انطلاقا من قوله تعالى: ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[1]. ويسرد هذا الجانب القصصي أخبار الأنبياء والرسل والأمم الغابرة وما لقيه الرسل من تكذيب وصد وما حاق بالأمم الغابرة من ألوان العذاب والتنكيل الشديد بهم.

ولقد سيق هذا النوع من القصص لتحقيق أغراض دينية كإبراز جوهر الرسالات السماوية الداعية الى الوحدانية وبيان ان الرسل في دعوتهم سلسلة واحدة منذ آدم عليه السلام وحتى محمد، ﷺ. وما من نبي الا وجاء بجوهر هذه الدعوة الى التوحيد الخالص، بل وتكاد تكون العبارة واحدة في الصياغة والمعنى. فالعبارة القرآنية الكريمة ﴿ **ما لكم من اله غيره** ﴾، وردت على لسان الأنبياء بلا استثناء. قال تعالى: ﴿ **والى عاد أخاهم هودا، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره، أفلا تتقون** ﴾[2]. فالتوحيد أساس العقيدة «يشترك فيه جميع الأنبياء في جميع الأديان، وترد قصصهم مجتمعة في هذا السياق لتأكيد ذلك الغرض الخاص»[3].

والنوع الثاني من قصص القرآن يتضمن جانبا إشاريا رمزيا يتعلق بأحداث وقصص قد وقعت للمسلمين تحتاج الى القول الفصل وتنتظر نزول القرآن الكريم ليبين فيها الحكم والتشريع، وكشف حقائق الموقف وأسرارها. كما حدث في حديث الإفك، أو الثلاثة الذين خلفوا، أو مناورات اليهود في المدينة، أو غزوات الرسول، ﷺ، وغير ذلك من المواقف التي تعرض لها المسلمون. وهذا جانب طويل عريض في القصة الإشارية الرمزية. وثمة نوع من القصص الإشاري الرمزي جاء مبثوثا في القصص التاريخية يحمل معنى رمزيا عميقا يستدعي البحث والتأويل لإدراك المغزى والهدف الديني.. وهو مرادنا في الدراسة. والرمز في اللغة هو الإيحاء والإشارة للإفهام بغير كلام. وقد يرد الرمز في الكلام وفي ثناياه، ليكشف عن المعنى المراد الايحاء اليه، ومن ثم تنشط المدارك العقلية للغوص وراءه. ذلك لأن الكلام المسرود «يحمل مضامين

---

١ ـ «يوسف» آية/٣.
٢ ـ «الاعراف» آية/٦٥.
٣ ـ «التصوير الفني» لسيد قطب، ص/١٤٩.

متخفية في أطوائه لا يبدو منها إلا رموز وإشارات خفية »[٤] حيث نستدل بها على تلك المضامين المرادة في الحقيقة . وهذا الجانب المتخفي في سياق العبارات عبر السرد الفني هو في الواقع منطقة رمزية .. تحمل الإشارة الموحية لفك الرمز الإشاري الوارد في السياق .. ولعل قصة « البقرة » .. خير نموذج لهذا النوع من القصص الرمزية .. والإشارة الى البقرة كرمز يحمل معنى عميقا تدل عليه الإشارة المتكررة في السياق القرآني .. « فالإشارة هنا الى محسوس خارجي ، ولكنها في الدلالة تكتسب أهمية في الحدث لأنها أصبحت بؤرته ومحوره ، وتصبح العلاقة ، ليست علاقة تشابهية بقدر ما هي إدراك للمغزى الخفي »[٥] .

ولقد وردت القصة في سورة « البقرة » تلك السورة الطويلة التي سميت باسمها .. اشارة الى مدى العمق الرمزي الذي تحمله البقرة كإشارة الى معنى عميق يتصل بالتشريع والأحكام . ولقد حكت الآيات الكريمة القصة من قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ، ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة ، قالوا أتتخذنا هزوا ، قال اعوذ بالله أن اكون من الجاهلين** ﴾ . الى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون .** ﴾[٦] .

والقصة تدور حول رمز حيواني وهو البقرة . ولقد تناولت كتب التفسير جانبين من القصة ، كل جانب يغطي موقفا من القصة بحيث يتبدّى لنا المعنى العميق ، ويكشف لنا السر من وراء الرمز . والجانب الأول يدور حول رجل بالغ الغنى .. من بني اسرائيل لا ولد له ، فاستعجل وارثه قتله ليأخذ ماله ، وتظاهر بأنه يطالب بدم القتيل أو ديّة القتيل .

وعن ابن عباس : كان رجل في بني اسرائيل كثير المال وله بنو أخ يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله في الليل ، فلما أصبح الناس اختصموا فيه ، وجاء ابن اخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله . فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه الى رسول الله موسى . فقال موسى عليه السلام : انشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل الا أعلمنا به . فلم يكن عند أحد منهم علم منه . فسألوه ان يسأل في هذه القضية ربه عز وجل ، فسأل ربه عز وجل في ذلك فأمره الله ان يأمرهم بذبح البقرة[٧] .

والجانب الثاني الذي يكمل بناء القصة ويكشف عن بعض معانيها المستترة يتمثل في الولد الصالح الذي كان بارا بأبيه وكان يملك هذه البقرة الموصوفة ، فلما وجدها القوم المتخاصمون عنده ساوَموه عليها وتزايدوا عليها حتى اشتروها بوزنها ذهبا ..

يقول الزمخشري « رُوي أنه كان في بني اسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال : اللهم اني استودعكها لابني حتى يكبر ، وكان بَرا بوالديه .. فشبَّت وكانت من أحسن البقر وأسمنه ، فساوموها اليتيم حتى اشتروها بملء مسكها ذهبا »[٨] .

والقصة تكشف عن دلالات رمزية وإيحائية متعددة .. فهي تدل على طبيعة بني اسرائيل المتشككة وعدم استجابتهم للتكاليف ، وتلمس الحجج والسخرية المنبعثة من قلوبهم الغليظة وألسنتهم الحداد . ولقد ضيقوا على انفسهم دائرة الاختيار وكان الأمر في سعة ، فأصبحوا مكلفين بأن يبحثوا عن بقرة محددة تحديدا قاطعا . ولقد كشف الحوار عن هذه الطبيعة الشكسة :

- ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرة .
- ★ أتهزأ بنا يا موسى وتسفه عقولنا !
- أعوذ بالله أن اكون مستهزئا بكم .
- ★ ما البقرة التي تريدنا ان نذبحها ، فالبقر كثير !
- هي وسط بين الكبر والصغر .
- ★ فلتبين لنا ما لونها .. أهي من جنس البقر ولونه ؟!
- هي بقرة صفراء شديدة الصفرة تسرّ الناظرين .
- ★ إننا في حاجة الى تحديد اكثر فلا عمر البقرة كاف ولا لونها !!
- هي بقرة لم تسخّر لحرث الأرض ولا لسقاية الزرع .. مبرأة من العيوب ولا شية فيها .
- ★ الآن جئت بالحق ، وانتهى الغموض الذي اكتنف الأمر كله .

ولقد دلت القصة في مستواها العميق على قدرة الله وحقيقة البعث وطبيعة الموت والحياة . وتلاءمَ سياقُ الأداء القرآني مع تلك النُّقْلة الدينية حيث تحول الأداء

٤ ـ « القصص القرآني في منظومه ومفهومه » ـ عبدالكريم الخطيب ، ص/٣٤١ .
٥ ـ « الصور الأدبية » د. مصطفى ناصف ، ص/١٥٤ .
٦ ـ سورة « البقرة » ، الآيات/٦٧ ـ ٧٣ .
٧ ـ « قصص الأنبياء » ـ ابن كثير ، ص/١٢٥ ـ ١٢٦ .
٨ ـ « الكشاف » ج١/٧٥ .

من سرد الحكاية الى استخدام الخطاب ليكشف عما يكتنفه الرمز ـ البقرة ـ من معنى دلالي حيث ظهر الحق على لسان القتيل ، وتجسدت أمامهم آية البعث بعد الموت ، وكان ذبح البقرة هو الوسيلة لإبراز تلك الآية الإلهية . وكان الإحياء عبر بضعة من البقرة . قال تعالى : ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته** ﴾ .

« وما في البضعة حياة ولا قدرة على الإحياء . انما هي مجرد وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله ، التي لا يعرف البشر كيف تعمل ، فهم يشاهدون آثارها ، ولا يدركون كنهها »[٩] . وكطبيعة الرمز ، فقد بدأت القصة بداية تثير الشوق ، فثمة مجهول لا نعرفه ، وثمة حوارات تدور حول محسوس ظاهري ، ولكن الباطن مغيّب ولم تسفر القصة عنه إلا في سياقه الطبيعي ومكانته الدالة عليه . وبين البدء والمنتهى ثمة فجوات ـ كطبيعة المنهج القرآني في القصّ ـ يستطيع الخيال البشري ان يملأها حيث ندرك طبيعة النبي الصابر على لجاج القوم وطبيعة بني اسرائيل الشاكة المندهشة ، الباحثة في لهاث عن شيء مادي يفضي في النهاية الى أمر معنوي .

والتشويق مسك أنفاس القوم وأنظارهم وقبض على مشاعرهم الداخلية . فالواقعة ـ قتل النفس ـ جرت قبل الأمر بذبح البقرة ، وان وردت في الذكر بعده ، وذلك مدعاة الى التشويق والرغبة في معرفة سبب الذبح ، « وغير الترتيب لتكرير التوبيخ وتثنية التقريع كما قال ابو السعود »[١٠] . وان كل ما قصّ من قصص بني إسرائيل إنما قصّ تعديدا لما وجد منهم من الجنايات وتقريعا لهم عليها . وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع ، وإن كانتا متصلتين متحدتين « فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال ، والثانية للتقريع على قتل النفس المحرَّمة وما يتبعه من الآية العظيمة ، وانما قُدِّمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض في تثنية التقريع »[١١] . والقصة الرمزية التي استخدمت الرمز الحسي أداة فعّالة في مُجريات الحدث ، تستدعي

٩ ـ « الظلال » ـ سيد قطب ، مجلد ١ ـ ص/ ٨٠ .
١٠ ـ « صفوة التفاسير » ج١ ـ ص/ ٦٩ .
١١ ـ الكشاف ج١ ص ٧٦ .

التخييل والتجسيم وعمق التصوير لتشكيل الفكرة المجردة تشكيلا يتلاءم مع مدركات الانسان . فالبقرة تجسيد لموقف قصصي تولدت منه أحكام تشريعية ، والرمز فيها هو البنية الحية في الحدث كله . فالبقرة نستطيع ان نقف عندها ونلم بهيكلها وصفاتها ولكنها في القصة ليست هذا الشكل الخارجي فقط وانما هي رمز وإشارة الى المعنى العميق الذي يحمل تشريعا ، ويبرز آية ، ويعتني بقصة بشرية ، تثير الوجدان وتوضح بعضا من أنماط السلوك الفاسد الذي يردعه العقاب ، ويتوجب معه القصاص . ومن ثم فإن لفظ البقرة ينتهي في الواقع المادي بمجرد التعرف اليه ، لخلوصه من الشكل الخارجي واقترابه من المعنى ، لتظل برمزيتها قائمة وفاعلة بما تشعه من دلالات ومعان .

ويحمل الرمز كثيرا من المعاني والمشاعر والأحكام وأنماط السلوك ، ومن ثم فهو وسيلة وظيفية في كل فن عظيم . ذلك انه من سمات الأداء القرآني في القصة اتباع طريقة تصوير المعاني الذهنية والحالات النفسية في صور حسية ، حتى لتبدو كأنها حاضرة شاخصة . وهذه الطريقة التعبيرية « تخاطب الحس والوجدان ، وتصل الى النفس من منافذ شتى ، ومن الحواس بالتخييل ، ومن الحس عن طريق الحواس ، ومن الوجدان المنفصل بالأصداء والأضواء .. ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة الى النفس »[١٢] . وجو القصة مشبع بالخوارق التي تتمثل في إحياء القتيل . والبعث بعد الموت يؤلف ركنا أساسيا في بناء العقيدة . وبابتعاد الانسان عن هذه الفكرة الإيمانية تتوحش فيه المسالك . ولا شك ان القصة تكشف عن طبع يهودي ورث روح التمرد والنفاق والاستهزاء ، ودأب على الفتنة والدس . وصدق فيهم قول رسول الله ، ﷺ : « لو اعترضوا ادنى بقرة فذبحوها لكَفَتْهُم ، ولكن شددوا فشدد الله عليهم » . ودراسة الإشارات الرمزية في القصة القرآنية يكشف عن علاقة الشعور الديني بالعاطفة وارتباط الجانب العقيدي بالنفسي . والقرآن يتخذ الأسلوب الحكيم المعجز للتدريب والتعليم والتربية ويثير في المسلم كوامنه الإدراكية العاقلة فيجعله يواجه مشاكله المختلفة ويتصدى لها في ضوء ما أبرزه القرآن من قِيَم وأحكام وتوجيهات □

١٢ ـ « التصوير الفني » لسيد قطب ، ص/ ٢٤٢ .



الأساليب العربية وشوائب الأساليب المترجمة

بقلم: د. صاحب جعفر أبو جناح / بغداد

منذ سنوات خلت استوقفتني عبارة في نص قديم كتبه اللغوي المحدث الإمام ابو القاسم السهيلي الاندلسي المتوفى سنة ٥٨١ هـ يحلل فيه ظاهرة منع الصرف (التنوين) في العربية، ويناقش نظرية النحاة العرب في تفسيرها.

تقول العبارة: فان العرب لا تريد ان تشعر المخاطب بتمكن اسم، ولا ايضا التمكن معنى نحتاج الى بيانه، واعلام المخاطب به[1].

وحين تكررت مراجعتي للنص المتقدم لدواعي البحث والدراسة ازددت توقفا عند هذه العبارة التي احسست انها ليست من المألوف في اساليب العربية الفصيحة، أو في اساليب الكُتَّاب المتقدمين.

والغريب في هذه العبارة ان كلمة «ايضا» تقدمت، مسبوقة بلا النافية، على بقية عناصر الجملة التي هي جزء منها.

ويقتضي شرط الفصاحة ان تأتي «ايضا» في نهاية الجملة بصفتها مصدرا للفعل «آض» بمعنى عاد، الذي اندثر في الاستعمال، ولم يبق غير مصدره الذي يؤدي وظيفة المفعول المطلق المؤكد لما قبله من الكلام، فيعطي ما تعطيه كلمة «كذلك». ومعنى «ايضا» الحرفي: عودا.

وتبدو هذه المفردة – على شيوعها وتداولها الواسع – كما لو كانت كلمة جامدة ملازمة لصيغة النصب بصفتها مفعولا مطلقا يحشر في زمرة طائفة من المصادر السماعية من نحو: دواليك ولبيك وحنانيك، ومن نحو قولنا: لطفا ومعذرة ورجاء ونحوها.

والمألوف في أساليب العربية الفصيحة ان يقال: وليس التمكن معنى تحتاج العرب الى بيانه واعلام المخاطب به ايضا.

ويقودنا التفكر والتأمل في هذه العبارة وامثالها من الاساليب غير المعروفة عن فصحاء العرب، ولا عن النمط المعتاد لنظام الجملة العربية في الشعر أو في النثر، الى ان نلمح – تقديرا – الأثر المبكر لترجمة العلوم العقلية والفلسفية الى العربية منذ النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وتأثير النصوص المترجمة في ادخال الأساليب الغريبة على العربية. وعلى نظام الجملة فيها، لا سيما اذا عرفنا مدى شيوع هذه العلوم، وما ترجم عنها من نصوص لدى الدارسين العرب والأوساط العلمية، على اتساع دوائرها وتنوع اهتماماتها.

١ – امالي السهيلي – ت د. محمد ابراهيم البنا – القاهرة ١٩٧٠م / ص ٢٥.

يعزز هذا الاعتقاد اننا وجدنا العبارة نفسها في ترجمة متى بن يونس (ت ٣٢٨ هـ) لكتاب الشعر لأرسطو، حيث يقول: وذلك انه ليس لنا ان نسمي تشارك حكايات وتشبيهات سوفرن وكسانرخس والأقاويل المنسوبة الى سقراط، ولا ايضا ان جعل الانسان تشبيهه وحكايته بالأوزان الثلاثية، أو هو هذه التي يقال لها الغايا[٢].

وهذه العبارة المضطربة الركيكة في ترجمة متى بن يونس يظهر فيها بصورة جلية الأثر المربك للتقيد بحرفية النص اليوناني وعدم التحرر من مواضعاته الاسلوبية ونظام الجملة فيه. يضاف اليه عدم تمكن يونس من العربية التي يترجم اليها، وهو ما تشهد به عبارته، ويقرره ايضا الاستاذ الدكتور شكري عياد، الذي درس الكتاب، اصلا وترجمة، دراسة تحليلية متأنية، ثم أعاد ترجمته مجددا.

وكانت ترجمة الدكتور عياد للعبارة السالفة على النحو التالي: فليس لدينا تسمية عامة لمشاهد سوفرن وكسانرخس ومحاورات سقراط، ولا لما قد يعمل من المحاكاة في العروض الثلاثي أو الاليجي او غيرهما من الأعاريض[٣].

ولا يخفى ما بين العبارتين من فرق عظيم. ولكن عبارة «ولا ايضا» التي ابتدعها متى ظلت تتردد في اساليب الكتاب على نحو ما وجدناه عند السهيلي الاندلسي، وعلى نحو ما نجده في ايامنا هذه من شيوع عبارة «ليس فقط» على نحو واسع النطاق، وهي عبارة ليست من العربية الفصيحة في شيء؛ لأن «ليس» لم تقترن في تاريخها الطويل في اللغة العربية بكلمة «فقط» لا بصفة اسم ولا بصفة خبر، وهي ليست غير ترجمة حرفية لعبارة ــ Not only.

٢ ــ كتاب ارسطو في الشعر ــ ت د. شكري عياد ــ القاهرة ١٩٦٧م ص ٢١.

٣ ــ المرجع السابق ص ١٨٠.

فحين يكتب كاتب: «ان اهمية استصلاح الأرض ليس فقط من الناحية الاقتصادية...» يكون قد وضع «فقط» موضع اسم «ليس» وهو ما لا وجه له في العربية. وصوابه أن يقول: ان اهمية استصلاح الأرض ليست من الناحية الاقتصادية فقط، أو: فحسب، وهما بمعنى واحد. وبهذا يتضح الأثر الضار للتقيد الحرفي بنظام الجملة في اللغة المترجم عنها، وما يترتب عليه من افساد العبارة العربية وارباك نظامها إرباكا غالبا ما يكون مخلا بنظام قواعدها وبسلامة مضمونها.

في العبارة المترجمة التالية: وقد لاحظ بروبن انه في هذه الحكايات على الرغم من تغير اسماء وخواص الشخصيات، الا ان الوظائف لم تتغير[٤].

في هذه العبارة لا نجد خبر «ان» المفتوحة الهمزة. فجملة: «الا ان الوظائف لم تتغير»، لا تصلح ان تكون خبرا لها، لأنها جملة استدراكية، وان جاءت بصيغة الاستثناء، وهو من التجاوزات الاسلوبية الشائعة، فضلا عن ان استخدام ضمير الشأن «الهاء» اسما لأن، لا مبرر له.

وصواب العبارة واستقامتها ان تصاغ على النحو التالي: وقد لاحظ بروبن ان الوظائف في هذه الحكايات لم تتغير على الرغم من تغير اسماء الشخصيات وخواصها.

وبذلك تكون عناصر الجملة قد شغلت مواقعها الملائمة لها واستكملت وظائفها المخصصة لها. لكن التقيد الحرفي في ترجمة النصوص والعبارات الاجنبية ينجم عنه، لا محالة، مثل هذه الاثار الضارة لأساليب العربية المخلة بشروط الفصاحة فيها.

ان التأثير المربك لنظام الجملة العربية واساليبها الناجم عن التقيد الحرفي بنظام الجملة الاجنبية ونسقها يتجلى في اوضح صورة في النص التالي: «يصنف التعريف السالف حكايات البخلاء باعتبارها مجموعة من

٤ ــ بناء النص التراثي ــ د. فدوى مالطي ــ دار آفاق عربية ــ بغداد ص ٢١.

الوحدات الأدبية التي ـ برغم اختلافها من حيث الشكل أو التنظيم ـ الا انها جميعا تعتمد على الاحداث التي مهما يكن تنوعها ، فهي تقوم على اساس واحد مشترك ، هو انها جميعا تمثل صفة البخل أو طبيعة الشخص البخيل »[٥] .

في هذا النص لا نجد صلة للموصول « التي » فجملة « الا انها جميعا تعتمد على الاحداث » لا تصلح ان تكون صلة له ، لأنها جملة استدراكية ، وقد جاءت بصيغة الاستثناء ، وهو من انماط الخلط الاسلوبي الشائع ، فضلا عن انه فصل بين الاسم الموصول وصلته بعبارة معترضة ليس هذا موضعها الملائم . كما ان الاسم الموصول الثاني في العبارة « التي » ظل بدون صلة ، وجيء بعده بجملة شرطية لا تصلح ان تكون صلة له ؛ لأنها جملة انشائية ، وشرط جملة الصلة ان تكون جملة خبرية . وصواب العبارة ان تصاغ على النحو الآتي : يصنف التعريف السالف حكايات البخلاء بصفتها مجموعة من الوحدات الأدبية التي تعتمد جميعا ـ على الرغم من اختلافها من حيث الشكل او التنظيم ـ على الاحداث التي تقوم على اساس واحد مشترك مهما يكن تنوعها . هذا الأساس هو انها تمثل جميعا صفة البخل او طبيعة الشخص البخيل .

ان هذه الشوائب والعثرات الاسلوبية وامثالها من نحو قولهم : « خاصة وان » وقولهم : « بل وحتى » وقولهم في لغة الدوريات : هذا العدد لماذا ؟ أي : لماذا يصدر هذا العدد الخاص ؟ ليست غير آثار واضحة للتقيد الحرفي بالنصوص الاجنبية عند الترجمة ، دون مراعاة لنظام الجملة العربية وقواعد التركيب فيها .

فأداة الاستفهام « لماذا » لها الصدارة في الكلام ، وهي عادة يستفهم بها عن الحدث لا عن الذات ، وان ادراج « بل » التي هي حرف نسق للاضراب ، والواو وحتى في سياق واحد امر لا تعرفه العربية في اساليبها .

٥ ـ المرجع السابق ص ٢٠ .

ولكننا نجد من يقول : فقد اهتم العلماء بهذه المشكلة في السنوات الأخيرة خاصة وان كثيرا من الظواهر الطبيعية ، بل وحتى الظواهر الحضارية يعتمد تفسيرها اعتمادا يكاد يكون كليا على معرفة مستوى مياه المحيطات في الماضي ، والتنبؤ باحتمالات المستقبل[٦] .

وكان

يمكن ان يستخدم الكاتب « لا سيما ان » مكان « خاصة وان » لأن هذا ليس موضع استعمال « خاصة » واقحام الواو هنا بعد « خاصة » لا معنى له ، فضلا عن ان عبارة « بل وحتى » ليست من العربية في شيء ، لا من قريب ولا من بعيد ؛ لأن « بل » حرف للاضراب يأتي بعد نفي أو شبه نفي ، وليس في هذه الجملة اثر لنفي ، وان حتى حرف عطف يفيد انتهاء الغاية ، وليس هذا مظهر يفيد الغاية ، كما ان الكاتب لا يريد ان ينفي اعتماد تفسير الظواهر الطبيعية اعتمادا يكاد يكون كليا على معرفة مستوى مياه المحيطات في الماضي ، بل يريد ان يضيف اليه اعتماد تفسير الظواهر الحضارية ايضا اعتمادا يكاد يكون كليا على معرفة مستوى مياه المحيطات في الماضي ، وهذا يقتضي العطف الموجب لا العطف السالب المتمثل في الاضراب الذي تفيده « بل » في العربية . ولعل صواب العبارة ان تصاغ على النحو الآتي : لا سيما ان كثيرا من الظواهر الطبيعية ، فضلا عن الظواهر الحضارية ، يعتمد تفسيرها اعتمادا يكاد يكون كليا ... الخ » وبهذا نكون قد تجنبنا التناقض الناتج عن اقتران معنى الاضراب الذي تفيده « بل » بمعنى انتهاء الغاية الذي تفيده « حتى » العاطفة .

ولعل في هذه الملاحظات اليسيرة ونحوها مما يكتبه المعنيون بسلامة العربية بقصد رصد الاساليب الغريبة والشوائب الدخيلة ، وسيلة نافعة لأن يتجنب كتابنا ومترجمونا مزالق الوهم ومواضع الاضطراب في كتاباتهم ، مما ينجم عنه غالبا تشويه نقاء العربية وصفاء اساليبها البيانية □

٦ ـ مجلة الخليج العربي ـ البصرة ع ٣ سنة ١٩٧٥م / ص ٥٤ .



ترجمة: الدكتور عيسى المصو/ بيت لحم

قُدِّرَ عدد الذين يلبسون النظارات الطبية والعدسات اللاصقة بأربعين في المائة من السكان في اميركا عام ١٩٨٣ م ، وذلك بالمقارنة مع ثمانية عشر في المائة عام ١٩٣٩ م . وعلى الرغم من أن اطباء العيون يعتقدون ان عامل الوراثة يقوم بدور فعال في هذا المجال ، تبين على ضوء هذه الإحصاءات أن هناك سببا آخر لهذه العلة .

انـنا نعيش في محيط ضوئي شاذ يُعَرِّض صحتنا للخطر . فالمجتمع الحضاري يختلف اختلافا واضحا عن المحيط الطبيعي المرئي الذي تطور فيه الانسان . وقد صممت أعيننا أصلا للرؤية البعيدة ، غير انه في الوقت الحاضر يعمل الكثيرون من الكبار وطلبة المدارس ، لساعات عديدة كل يوم وهم قريبون جدا مما يعملون فيه ، وهذا بدوره يقود الى نتائج مروعة . فهناك من بين الذين يتفوقون في المدرسة ، يجيء تسعة عشر في المئة منهم وهم قصيرو النظر الى المدرسة الابتدائية ، ولدى انهائهم المدرسة الثانوية يرتفع الرقم الى ثلاثين في المئة تقريبا . وما ان ينهوا تعليمهم الجامعي حتى يكون أربعون في المئة منهم مصابين بقصر النظر .

إلا أنه لا يترتب على الانسان ان يصبح علّامةً لكي يضعف نظره . فالمحاسبون ، وعمال المصانع المتعاملون مع الأشياء الصغيرة ، وعمال التخريم ، وجميع العاملين تقريبا في عمل يقتضي منهم الاقتراب الشديد منه ، ومن يشاهدون التلفزيون بكثرة ، يتعرضـون جميعهم الى حالة الإرهاق البصري .

وحتى أولئك الذين لا يبالغون في استعمال أعينهم يقاسون من مشكلة أخرى ذات خطر كامن أشدّ بطشا الا وهي تلوث الضوء . وينذرنا العلماء ان الضوء غير الطبيعي الملوث قد يكون خطرا على صحتنا كتلوث الهواء والماء .

ان الانسان مخلوق يعتمد على ضوء الشمس لأنه يستقي منه طاقة الحياة ، ولكي يستمتع بأحسن صحة يترتب عليه ان يمتص الطيف الكامل من ضوء الشمس الطبيعي والذي يضم الطيف المرئي والأشعة فوق البنفسجية غير المرئية . (ان هذه الأشعة الطويلة ذات « الضوء الأسمر » هي المهمة للصحة . أما الأشعة فوق البنفسجية ذات الموجة القصيرة ، وهي من النوع الموجود في المصابيح الشمسية فهي تقلل من ضوء

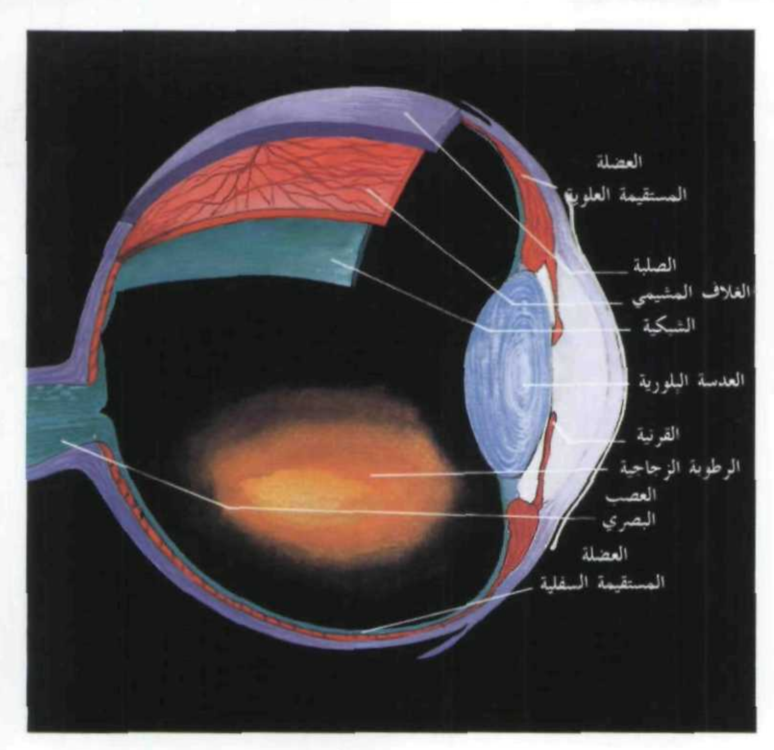
الشمس الطبيعي) . والانسان في حاجة الى امتصاص بعض من ضوء الشمس عن طريق عينيه اللتين تحويان كريات الإبصار ، وهذا له علاقة كبيرة بموازنة نظام الغدد الصماء ، والتحكم في الطرق الأيضية الحيوية ، على الرغم من عدم وجود علاقة له بحاسة البصر ، إلا أن نظاراتنا الشمسية ، والنظارات الطبية ، والعدسات اللاصقة ، وزجاج النوافذ ، ومعظم الموجودات المثبتة في المنازل والمكاتب ، لا تسمح بدخول سوى الإضاءة ذات الطيف المحدود .

وعبر آلاف الأجيال نظم الانسان يومه بواسطة الشمس الى حد كبير . فقد كان يخرج من بيته في ضوء الشمس في الصباح ، ويعود اليه في المساء . ولكن عند اكتشاف المصباح الكهربائي ، أصبح انسان المدينة يعيش داخل الأبواب . واذا شاهد أشعة الشمس ، فمن المرجح ان يكون ذلك في الصباح الباكر ، أو في وقت متأخر من بعد الظهر ، أثناء ذهابه الى العمل أو الرجوع منه ، أي في الساعات التي لا يتوفر فيها الا القليل من الأشعة فوق البنفسجية .

ويعمل معظمنا ايضا في ظروف من الإضاءة الاصطناعية ، فأنوار « الفلوريسنت » البيضاء الباردة المستعملة في معظم المكاتب والمصانع والمدارس هي أشد الأضواء ايذاء . كما انها لا تزودنا الا بالقليل جدا من الأشعة فوق البنفسجية في نسبها عن تلك الموجودة في ضوء الشمس الطبيعي ، بالاضافة الى حقيقة تسريبها اشعاعا عند أطرافها . ومن جملة خصائصها الطيفية التركيز على الشرائح الخضر المائلة الى الاصفرار للطيف ، بدلا من ان تكون الألوان متوازنة كما هي الحال مع الضوء الشمسي .

فماذا عسى أن تكون النتيجة ؟

قد يكون تأثيرها على طلبة المدارس إما اصابتهم بالنشاط على نحو مفرط ، والنوم غير السويّ ، أو اضعاف المقاومة للأمراض المعدية ، والانهاك ، وسرعة الغضب . أما الضوء المتوهج من النوع الذي يقتنيه الناس على الأرجح في بيوتهم ، فهو اكثر دفئا وأقل ضررا ، ولكنه لا يطلق ايضا الا القليل من الأشعة فوق البنفسجية ، أو لا يطلق اي شيء منها . ويجب ان لا



رسم تشريحي للعين

يغيب عن بالنا ان زجاج النوافذ لا يسمح للطيف الكامل لضوء الشمس الطبيعي ان يتسرب منه . ولحسن الحظ هناك اليوم حلول لهذه المشاكل . وبعض الحلول بسيطة لا تعدو تغيير عادات الاضاءة والقراءة .

وليس معنى هذا اننا نحاول تسبيب احباط للصغار في دراستهم أو للكبار في تأدية عملهم في المكاتب ، كما يقول الدكتور « ريتشارد كريغز » ، الرئيس السابق لدائرة معالجة النظر في جامعة نيويورك الحكومية ، والمؤلف لكتاب « الابصار الشامل » مع « لورين دسكي » ، الا انه من الممكن الحيلولة دون تطور المشكلات اذا اتخذت الإجراءات المناسبة ، فعلى سبيل المثال يجب تعليم الأطفال منذ البداية ان يعمدوا باستمرار الى التوقف عن القراءة بين الحين والآخر .

وينطبق هذا ايضا على الكبار . فلا ينبغي على المرء مداومة القراءة اكثر من ١٥ ـ ٢٠ دقيقة دفعة واحدة بدون رفع نظره والتركيز على شيء بعيد مدة دقيقة على الاقل ، مريحا بذلك جهاز التركيز ، الذي يعد العامل الرئيسي في تسبيب قصر النظر .

وأوضح العالم الامريكي الدكتور « جوزيف شابيرو » ان العضلات الهدبية او المركزة قد تتعرض الى تشنجات بعد بضع ساعات من العمل المركز بدون أخذ فترات من الراحة . ويسبب التشنج زيادة في الضغط مما



يمدد كرة العين مسببا امتدادا محوريا لها : « كرة العين الطويلة » . فاذا خففنا الضغط على العضلة المركزة ، عن طريق استراحات متكررة ، استطعنا منع العضلة من التعرض للتشنج .

ولا يجب على العين ان تريح من تركيزها فحسب ، بل يجب على الجسم ان يقوم بذلك . فبقدر ما هو مهم للانسان الاكثار من رفع بصره عن الصفحة التي يقرؤها ، فتجواله ، وأخذه أنفاسا طويلة مرة واحدة في الساعة على الأقل هما مهمان أيضا .

ان القوانين نفسها التي تجب مراعاتها في الانطلاق من التركيز تنطبق على مشاهدة التلفزيون . ويجب التأكد من الجلوس على مسافة لائقة بعيدا عن الجهاز (أي بقدر خمس الى عشر مرات عرض الشاشة خصوصا بالنسبة الى الجهاز الملون الذي يطلق اشعاعا يفوق اشعاع الجهاز الأسود والأبيض) . كذلك يجب ان تكون الإنارة عامة وخافتة في الغرفة .

ان الجلسة الجيدة اساسية عندما نقوم بعمل دقيق ، فينبغي الجلوس على مقعد منتصب مريح يتيح للظهر انحناءة بسيطة بطريقة عادية ، فيما تكون القدمان منبسطتين ومستقرتين على الأرض . وبمقتضى ما ذهب اليه الدكتور « كيغنر » فان القراءة المتواصلة في وضع غير مريح قد تسبب ضغطا على عضلات العين ، مما يؤدي الى تغير في شكل قرنية العين المكونة من أنسجة مرئية .

وهذا يؤدي بالطبع الى ان تصبح العين لا نقطية ، أي أن تصبح كرة العين أقرب الى البيضة منها الى الكرة ، وهكذا فان الضوء الذي يسقط على أنحاء مختلفة منها ينكسر بمقادير مختلفة ، ولا تتركز في مكان واحد . والشخص الذي يعاني من اللانقطية يجد صعوبة في التمييز بين الأحرف والعلامات الموسيقية (النوطة) المتشابهة .

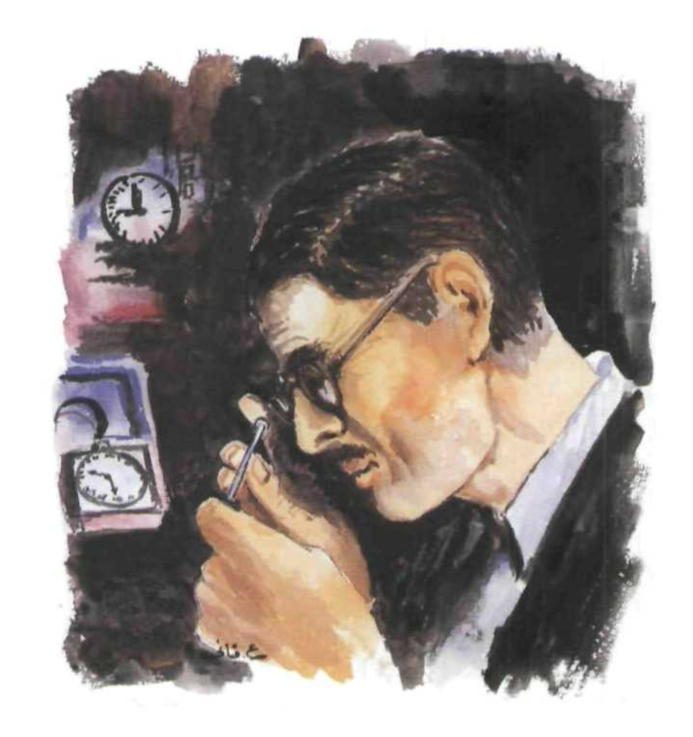
كما ان سطح المكتب الذي يعمل عليه الانسان له أهميته . وغالبا ما يكون السطح منبسطا ، مما يضع القارىء في وضع شاذ للعمل . اما الوضع الطبيعي فكائن في إحالة سطح المكتب على زاوية مقدارها ٢٠ درجة ، وهو الوضع الطبيعي للانعكاس بالنسبة الى العمل الدقيق . كما انه من المفيد ان يكون سطح المكتب ذا لون فاتح ، ذلك ان المكتب الداكن اللون يخلق صراعا بين الكلمات على الصفحة والخلفية الداكنة بحيث يضطر القارىء الى مغادرة مكتبه بصورة غير شعورية .

أما الاضاءة أثناء العمل فيجب ان تكون ملائمة كأن لا تكون ضعيفة بحيث تسبب الانهاك أو قوية بحيث تضعف التركيز . أما القاعدة العامة التي ينبغي الاسترشاد بها فتكمن في مقدار الراحة التي تتيحها الاضاءة دون ان يغيب عن بالنا ان الانسان في حاجة الى إضاءة عامة (كإضاءة السقف أو المصابيح الطويلة) ، بالاضافة الى الإضاءة الموضعية التي يفضل ان تكون قادمة من فوق الكتف الأيسر (اذا كان الانسان ايمن) لكي ترتد من الموضوع الذي هو قيد المعالجة . ولتجنب الظل فإنه يُستحسن عدم العمل امام نافذة أو بشكل مواز لها ، أو ان تكون النافذة خلفنا مباشرة .

ويمكن اليوم التحكم الى حد بعيد بنوعية الضوء الذي نرى بواسطته . فالاضاءة الداخلية ذات الطيف التام . والنظارات الطبية والعدسات اللاصقة التي تدخل الطيف التام لضوء الشمس الطبيعي ، متوافرة الآن .

وبالنسبة للنباتات والحيوانات والناس فقد يكون للضوء قوة الدواء، أو ان يكون مؤذيا كالسم. وقد دلت عقود من البحث في البيولوجيا الضوئية في الولايات المتحدة وبلدان أخرى، وخصوصا في الاتحاد السوفييتي، على ان الموجات الطويلة المختلفة من الضوء التي تتلقاها العينان لها تأثير كبير على كيمياء الجسم (وفي الاتحاد السوفييتي يُطلب من عمال المناجم التعرض الى الأشعة فوق البنفسجية ١٥ دقيقة يوميا لحمايتهم من مرض الرئة الأسود)، فهي تؤثر على وظيفة جهاز الغدد الصماء، وامتصاص الكالسيوم في الامعاء (وهذا مهم بالنسبة الى الاطفال الذين هم في طور النمو)، ومهم ايضا للكبار للحيلولة دون تكسر العظام، وللنمو الجنسي ومقاومة الزكام والعدوى الفيروسية. وبَيَّن خبراء الحيوان ان الاضاءة ذات الطيف المحدود تزيد من معدل نمو الاورام، الامر الذي قد تكون له تأثيراته الهامة في التغلب على السرطان.

ان ممارسة المعالجة الضوئية هي من الفاعلية بحيث أصبحت اليوم العلاج المفضل في المستشفيات لحالات اليرقان الذي قضى على حياة الكثير من المواليد الذين لم يكتمل موعد الحمل بهم.



ومن الجدير ملاحظته ان النشاط الزائد عن الحد عند طلبة المدارس نـقـصَ بشكل محدود، وبدون استعمال مهدئات، وذلك عند اجراء تجربة في الصفوف الأولى في احدى مدارس فلوريدا حينما استبدلت الأضواء البيض باضاءة تامة الطيف.

فهل يترتب على الانسان ان يكون مجهزا باضاءة تامة الطيف في بيته؟ يوافق الطبيبان «شابيرو» و«كريغز» على هذا ما لم يستطع الانسان ان يخرج الى الخارج مدة ساعة أو ساعتين كل يوم. ومن المفضل ان يجري هذا ما بين الساعة الحادية عشرة والرابعة من اجل الحصول على فوائد الأشعة فوق البنفسجية الطبيعية. وعلينا ان نتذكر ان النظارات الطبية، والنظارات اللاصقة لا تسمح الا للضوء ذي الطيف المحدود من الدخول الى العين.

وهذا انذار آخر حول النظارات الشمسية: انها قد تكون خطرة على الصحة. ويجب على الانسان ان لا يستعملها الا اذا واجه ظروفا طويلة من الوهج، كما يحدث على الشاطىء أو على الثلج. ولكن اذا لبسها الانسان دائما فانها تحجب عن عينيه اشعة الشمس الهامة للصحة. وفوق كل هذا يجب تجنب العدسات الأنيقة ذات الألوان الفاتحة الموجودة على الطرفين كالأحمر والأزرق للطيف. فهذه لا تحمي العينين بشكل لائق فحسب، بل انها تجعلك تشعر بالمرض. وأسوأ هذه النظارات هي ما كانت وردية حمراء. وقد اشار الدكتور «جون أوت» في كتابه «الصحة والضوء» الى ان اللون الأحمر الوردي في النظارات أو الأنابيب البيض يجعل الحيوانات والناس عدوانيين سريعي الغضب ومشاكسين. وعندما أزيلت هذه الأضواء تغير مسلكهم.

ان النظارات الوحيدة المأمونة هي الرمادية والخضر، التي تعتم الألوان جميعها الى نفس الحد، ولكنها لا تغير علامات الالوان بالنسبة لبعضها بعضا. ويجب التأكد من ان تكون العدسات ملساء خالية من اية خدوش مما يؤثر على قوة البصر. وعلى وجه العموم يجب نزع النظارات الشمسية ما دام الانسان مرتاحا بدونها □

الكيميائي الصناعي
ودوره في التنمية الصناعية في المملكة

بقلم: د. داود سليمان رضوان/الظهران



الكيميائي الصناعي أكثر الأشخاص العاملين التصاقا بالعملية الصناعية.

ينعقد في الفترة من ٥ الى ٧ شعبان ١٤٠٩ هـ في رحاب جامعة الملك فهد للبترول والمعادن اللقاء الوطني الثالث للكيميائيين السعوديين تحت شعار «الكيمياء في خدمة التنمية». ويشارك في هذا اللقاء مراكز البحوث في المملكة ودول الخليج العربية وعدد كبير من الكيميائيين. كما يشتمل برنامج هذا اللقاء على العديد من موضوعات البحوث العلمية التي تتناول مجالات متعددة ومتنوعة ذات دلالات عميقة على مقدار الوعي بأهمية دور الكيمياء والكيميائيين في النهضة الصناعية في المملكة. وتجدر الاشارة الى ان اللقاء الثاني للكيميائيين السعوديين قد انعقد في الفترة من ٧ إلى ٩ رجب ١٤٠٧ هـ في رحاب جامعة الملك سعود. وقد استحوذ النقاش آنذاك حول مضمون الكيميائي الصناعي، على قدر كبير من الاهتمام. وليس هناك من شك في ان النقاش حول هذا المضمون «الكيميائي الصناعي» سيشغل حيزا من الاجتهادات، التي قد تتباين في أغلب الأحيان. وقد يكون سبب هذا التباين عدم استقرار الرأي، بصورة نهائية، حول هذا المضمون وتداخل المفاهيم التي ينبغي أن تميز بين منهج الكيمياء الصناعية ومنهج الكيمياء العامة، وكذلك المتطلبات التي ينبغي ان يفي بها الكيميائي الصناعي وطريقة تأهيله وإعداده للقيام بما هو مطالب به، في أماكن عمله في



المؤسسات الصناعية ، سواء أكان ذلك العمل في مجال إدارة العملية الانتاجية على قدم المساواة مع زملائه من العنصر الفني ، أم في مجال إدارة مراقبة الجودة الصناعية « السيطرة النوعية » التي تجعله في مقدمة العاملين على تطويع وتطوير العملية الصناعية لتنمية العملية الانتاجية وصيانة آلاتها والحفاظ على موادها .

أهمية الكيمياء والكيميائيين في التنمية الصناعية في المملكة

يرجع الاهتمام المتزايد بالبحث في مضمون الكيميائي الصناعي الى ارتفاع نسبة الكيميائيين العاملين بين العناصر الفنية في المراكز الصناعية الذين يضطلعون بمسؤولية إدارة عجلة الانتاج وصيانة آلاته ومواده ، وكذلك الى ارتفاع نسبة العملية الصناعية التي تشكل الكيمياء محورها ومركز ثقلها . وبإمكان المرء تبيُّن ذلك من القائه نظرة على مجمل أنشطة النهضة الصناعية في المملكة والتي بوشر بغرس جذورها ويؤمل لها الديمومة والتطور والنماء المستمر . وباختصار تتركز التنمية الصناعية في المملكة بصورة رئيسية في القطاعات الثلاثة التالية :

- قطاع صناعة النفط بما يشتمل عليه من عمليات استكشاف واستخراج وتكرير البترول .
- قطاع تحلية المياه المالحة وتوليد الطاقة الكهرُبائية .
- قطاع الصناعة البتروكيميائية .

وفي جميع هذه القطاعات تشكل العمليات الكيميائية ما لا يقل عن ٨٠٪ من مجمل العمليات الصناعية . وتسهم المعرفة الكيميائية إسهاماً فعَّالا في إدارة عجلة هذه العمليات وتطويرها في القطاعات الثلاثة .

على أن المعرفة الكيميائية المطلوبة ، للقيام بهذه المهمة ذات نوعية خاصة . فهي بجانب كونها تشتمل على معرفة الأسس العريضة للموضوعات الدراسية للكيمياء ، تتضمن كذلك التطبيقات الصناعية الممكنة والكيفيات المتاحة ، للاستفادة من المادة العملية ، والتعرف إلى مجمل أبعادها الفنية والاقتصادية .

الكيمياء الصناعية والكيميائي الصناعي

عادة ما يبنى منهج دراسة الكيمياء العامة على تقديم هذه المادة في صورة مقتطفات تشكل قاعدة عريضة لمجالات الكيمياء المعروفة مثل الكيمياء غير العضوية والتحليلية ، والكيمياء العضوية ، والكيمياء الفيزيائية . وتتداخل موضوعات الدراسة في هذه الشعب في كثير من الحالات . فمثلا يدرس الطالب حركية وماهية التفاعلات الكيميائية في منهج الكيمياء الفيزيائية وكذلك العضوية وغير العضوية . وهو أثناء دراسته يقتطف بين كل مساق مجموعة من المعارف الأساسية ليكوِّن معرفته الكيميائية ذات القاعدة العريضة . وبالمقابل فانه لا يتسنى له التعرف إلى التطبيقات الصناعية لهذه الحركية للتفاعلات الكيميائية أيا كان نوعها .

كما ان منهج الدراسة العامة للكيمياء لا يرسّخ ، في كثير من الأحيان ، لدى الدارس لهذه المادة ، القناعة بأن الكيمياء بوجه عام ما هي إلا صنعة وهي ترمي ، بصورة أساسية ، الى تصنيع مواد جديدة من أخرى معروفة أو مواد ذات قيمة اقتصادية أكبر من مواد أرخص أو أقل قيمة اقتصادية . وهنا يأتي دور الكيمياء الصناعية التي تكمل هذا النقص في منهاج الكيمياء العامة . حيث يتم من خلال دراسة الكيمياء الصناعية ترسيخ هذا المفهوم . لهذا ينبغي التأكيد على أن الكيمياء الصناعية ليست مجرد تسمية لإحدى المساقات الدراسية التي يضمها منهاج الكيمياء . وهي ، أي « الكيمياء الصناعية » ، ليست مجرد تحقيق رغبة في تنويع المساقات الدراسية . فهذا المساق ينبغي ان يكون له هدف ومضمون ومحتوى يعمل على ترسيخ كون الكيمياء صنعة لها أصولها وأبعادها الفنية والاقتصادية .

والكيميائي الصناعي هو الذي يُفْتَرض أنه درس منهاج الكيمياء الصناعية وتم إعداده وتدريبه توافقيا مع منهج دراسته وطبيعة عمله المستقبلي، بما يمكنه من استعمال ما تلقاه من مادة علمية والاستفادة من تدريبه، في إدارة العملية الصناعية الكيميائية بطريقة عملية مقتدرة.

فالكيميائي الصناعي من أكثر الأشخاص العاملين التصاقا بالعملية الصناعية. وهو لذلك لا يمكن اعتباره مؤهلا، بطريقة صحيحة، لأخذ مكانه المتقدم ضمن اطار العنصر التِّقْنِي الذي يضطلع بمسؤولية إدارة عجلة العملية الصناعية باقتدار، لمجرد كونه درس مساقا علميا أطلق عليه عنوان «الكيمياء الصناعية» اذا لم يشتمل هذا المساق على هدف ومضمون ومحتوى كما بيَّناه سالفا. ولهذا يتطلب ان يشتمل منهج الكيمياء الصناعية، بجانب المفاهيم والمبادىء الأساسية للكيمياء غير العضوية والتحليلية، والكيمياء العضوية، والكيمياء الفيزيائية، على:

أولا – مبادىء العمليات الصناعية الكيميائية. حيث يزود الكيميائي بالمعرفة الكيفية التطبيقية للمفاهيم العلمية التي يدرسها في مجال التفاعلات الكيميائية وحركية هذه التفاعلات وأنواعها والعوامل المؤثرة فيها ومدى تأثير كل عامل أو ظرف من الظروف المؤثرة في التفاعل الكيميائي وأبعاده الاقتصادية والفنية.

ثانيا – مبادىء مراقبة الجودة الصناعية أو السيطرة النوعية. وهنا يتعرف الدارس إلى الكيفيات الممكنة للاستفادة من التجارب المختبرية لضبط عملية الانتاج والتحكم فيها والسيطرة عليها لتطويعها وتطويرها على أسس علمية. ويتعرف كذلك إلى الأبعاد الفنية للتجارب المختبرية. فإدارة السيطرة النوعية في المؤسسات الصناعية هي مركز التوجيه العلمي للأنشطة في مجالي العملية الانتاجية وصيانة آلاتها وموادها.

ثالثا – مبادىء الإحصاء والاقتصاد الصناعي، لكي يتمكن من تقدير قيمة عمله سواء كان عملا ايجابيا أو سلبيا [قيمة استهلاكية (سلبية) أو انتاجية (ايجابية)]. ولهذا ينبغي ان يكون الكيميائي الصناعي أقدر على سبر غور العملية الصناعية ومعرفة ما تحتاجه، سواء كان موقع عمله في إدارة وحدة الانتاج، أو في مختبر مراقبة الجودة الصناعية أو البحث والتطوير. والكيميائي الصناعي المؤهَّل والمعدّ إعدادا سليما، في مجال الصناعة، التي تغلب عليها العمليات الكيميائية، عليه ان يكون واثقا من نفسه ومقدرته في السيطرة على العمليات الصناعية وانمائها على أسس علمية.

الخلاصة

تعتبر الكيمياء الصناعية، اذا أُحسِن صياغة منهجها الدراسي، وطريقة إعداد وتأهيل الدارسين لها، من أهم المساقات الدراسية المطلوبة بالحاح للتنمية الصناعية في المملكة. فضمن مفهوم هذا المساق تتم إزالة التناقض بين ما هو مطلوب من الكيميائي ان يعلمه، ويحتاج اليه، وبين ما يتعلمه بالفعل وقد لا يحتاج اليه، في ممارسته للحياة العملية في الوحدات الانتاجية والمؤسسات الصناعية التي تتعامل مع العمليات الكيميائية. لأن الكيميائي الصناعي، في هذه الحالة، تتوفر لديه المعرفة الكافية بطبيعة ونوعية المتغيرات التي تؤثر في العملية الصناعية سَلبيا أو إيجابيا. ويدرك الأبعاد الاقتصادية لهذه المتغيرات ومقدار تأثيره فيها وتأثره بها، وبذلك يتمكن من التغلب على الجوانب السلبية لها وإنماء جوانبها الإيجابية. وهذا في اعتقادنا لا يتسنى للكيميائي إدراكه إلا من خلال منهاج دراسي معدّ بإتقان، وتدريب عملي يسمح له بالإلمام بالجوانب المتعددة للعملية الصناعية، وتوضيح الأبعاد الفنية والاقتصادية للقياسات المختلفة التي يتم اجراؤها على المواد الأولية والمنتجات الوسطية والنهائية لضبط مواصفاتها ضمن الحدود المقررة لها، من خلال اتخاذ الاجراءات الوقائية لمنع حدوث انحراف كبير في هذه المواصفات □



الموعد الرهيب

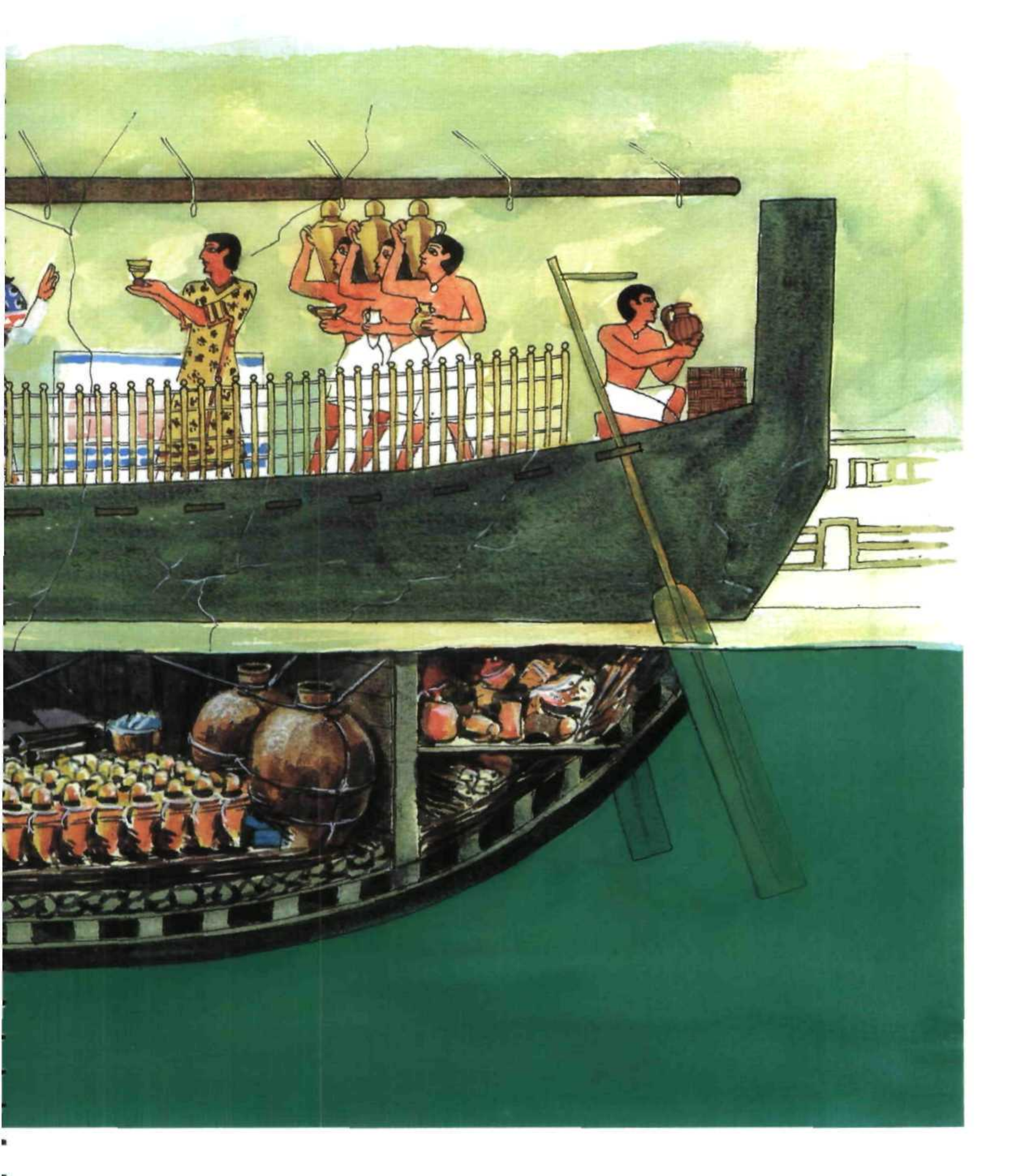
شعر: محمد المجذوب/المدينة المنورة

هذه القصيدة تبرز واقعي مع رفيقتي ، التي طعنتها السنون مثلي ، مصورة ما نعانيه في وحدتنا محرومين من عون ابنائنا الذين آثروا علينا متاع الدنيا فأبعدوا في هجرتهم الى استراليا التي اتخذوها لهم وطنا ، بعد أن سدت بوجوهنا ابواب العودة الى وطننا السليب في الشام .

يا هاجرينَ رياضَ الوحي في طَلَبِ الـ ـدنيا .. خَسِرتُمْ لعمريْ صَفْقَةَ العُمرِ
تَركتُمونا بلا عونٍ ولا سندٍ وقد غَدَونا مِن الدنيا علىٰ سَفَرِ
مَاذا عليكُمْ ، ونحْنُ الراحلونَ ، اذا شَيّعتُمونا قُبيل الموتِ بالنظرِ !
هلاّ تذكّرتمو عُقبى العقوقِ وَقَدْ أمسيتُمو مثلنا في قَبضَةِ الغيرِ !
وراحَ أبناؤكمْ يسقونكمْ نهَلا مما سُقينا بأيديكُمْ منَ المُررِ
وللمقاديرِ أحكامٌ اذا نزَلَتْ بالظالمينَ أحالتهمْ الى عبَرِ
... أشاقكمْ مِنْ عتاةِ الكفرِ ان مَسَخوا انسانهمْ فغدا قرداً من البَشَرِ
وجَاوزوا الحدَّ في تخريب فِطرتِهِ حتى لقد باتَ تمثالا منَ الحَجَرِ
صفرٌ منَ الروحِ لا عينٌ ولا اثرٌ من حُرمةِ الدينِ والأخلاقِ والأسرِ
فويحكمْ .. كيفَ آثرتُمْ مزالقَهُمْ على هدى الله في الآياتِ والسورِ !
وكيفَ ضلّلتِ الأهواءُ أعيُنَكمْ فلمْ تروا ما وراءَ الخطوِ منْ خطرِ !
لكنهُ الغيُّ قد يَعمي القلوبَ فلا تعي البصائرُ ما يجري على البَصَرِ
والعمرُ ، مهما يَطلْ ، مفضٍ الى أجلٍ تبلى السرائرُ في أهوالِهِ الكُبَرِ
وذاكَ موعِدُنا في ظلِّ مَحكَمةٍ ديّانها باريَ الأكوان والقَدَرِ
أما الشهودُ ففي الأعضاءِ يَنطقُها فتكشِفُ السّترَ عنْ مُستَودَعِ الذّكرِ
فأيُّ عُذرٍ لديكمْ في قطيعَتِنَا وليسَ في الظُلمِ مِنْ عُذرٍ لمعتَذَرِ
ومهملِ أبويهِ عِند عَجزِهما أحرى الورى بعظيمِ الويلِ في سَقَرِ
وكيفَ لا .. ورضى الرحمنِ مقترنٌ بحسنِ بِرّهما في مُحكمِ الأثَرِ

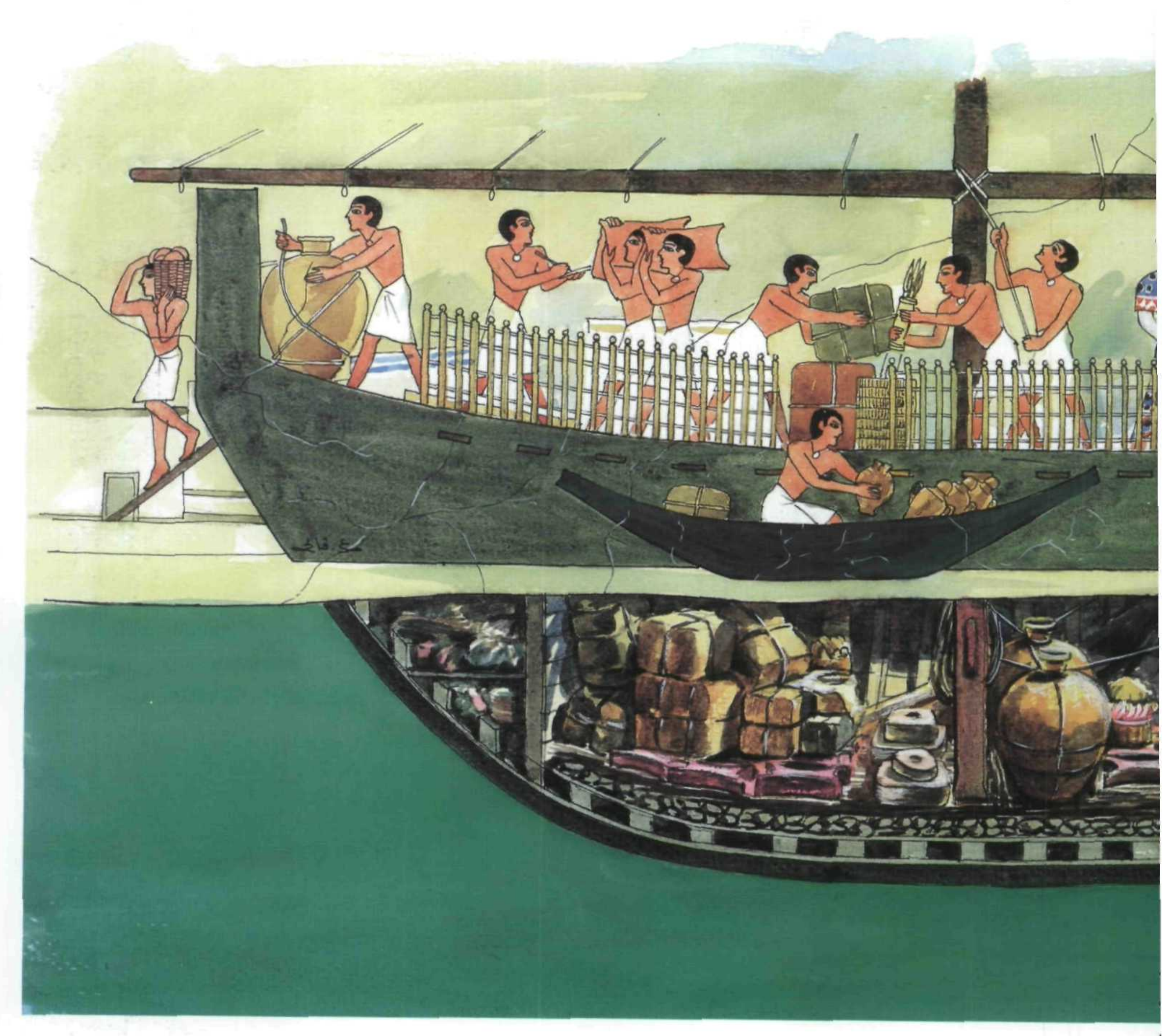
كنوز العصر البرونزي

تعكسها حمولة سفينة تجارية غرقت منذ أربعة وثلاثين قرنا



عثر غواص تركي يصيد الاسفنج عام ١٩٨٢م على مجموعة نفيسة من قطع معدنية، تناثرت في قعر البحر الابيض المتوسط قبالة الساحل التركي الجنوبي، في مكان يقال له "أولوبورون"، ولم يدر بخلده أن تلك القطع لم تكن سوى جزء من حطام سفينة تجارية، حملت شحنة من السلع المتنوعة والمصنوعات البرونزية النادرة، إرتطمت بصخور نتوء جبلي داخل في البحر، ثم هوت على إثر ذلك إلى القاع واستقرت على عمق مئة وخمسين قدماً، منذ أربعة وثلاثين قرناً. وقد تمكن فريق من علماء وخبراء معهد علوم الآثار البحرية في تكساس بالتعاون مع الخبراء والغواصين الأتراك من انتشال بقايا السفينة، واستخلاص بعض حمولتها، التي تمثل سبع حضارات ازدهرت في شرق البحر الأبيض المتوسط في عصر البرونز الحديث.

بقلم: سُليمان نصرالله / هيئة التحرير

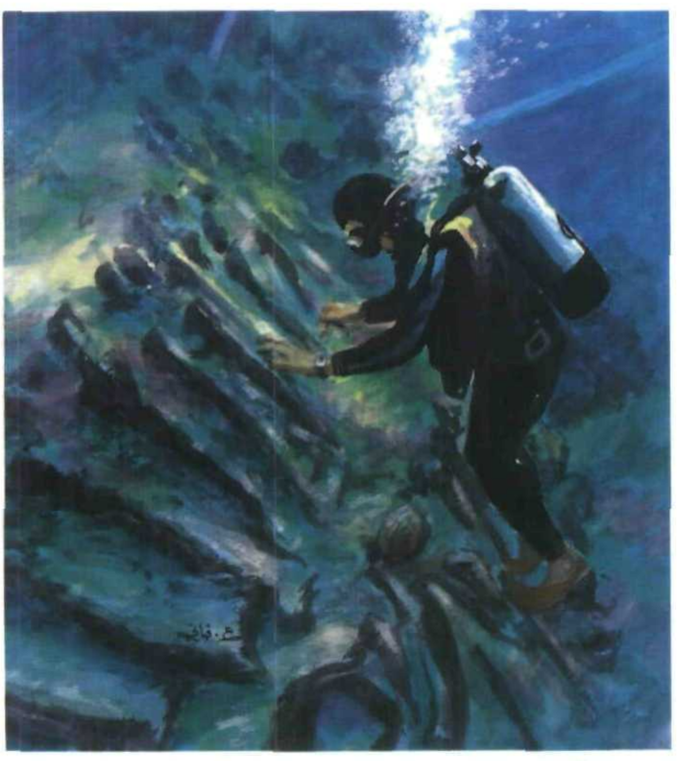


تلعب الصـدفة أحيانا دورا كبيرا في كثير من الاكتشافات والاختراعات والمبتكـرات، والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة. منها ما حدث في صيف عام ١٩٨٢ م، عندما قصـد غواص تركي شاب اسمه «محمد شاكر» بقعة في شرق البحر الابيض المتوسط تعرف باسم «أولو بورون» قبالة الساحل التركي، لصيد الاسفنج، وبينما هو منهمك في قطع الاسفنج للعودة به الى السطح، ارتطمت يداه بكتل معدنية مشكلة، أشبه بالسبائك، تحمل اشارات ورموزا غريبة لم يعرف كنهها، فحمل بعضا منها معه، وقفل عائدا الى مسقط رأسه «بودرم»، ولدى معاينتها من قبل ذوي المعرفة المحدودة، أخبروه انها لا بد وان تعود

خريطة لحوض البحر الأبيض المتوسط ، تري المكان الذي غرقت فيه السفينة ، ومصادر بعض السلع التي حملتها ولا سيما النحاس والبرونز ، وخط سير السفينة كما يعتقد علماء الآثار البحرية .

الى عهود قديمة . وبلغ خبر تلك السبائك المعدنية بعثة أثرية امريكية ، تابعة لمعهد علوم الآثار البحرية في ولاية تكساس كانت في زيارة لتركيا يومئذ .

لقد أثارت تلك القطع المعدنية اهتمام اعضاء البعثة الى حد كبير . وأجروا ترتيبات للقيام بالتنقيب والحفر في ذلك المكان ، وجندت طاقات علمية وأثرية هائلة بالتعاون مع فريق أثري تركي . وتكلل العمل بالعثور على سفينة غارقة تعود الى العصر البرونزي المتأخر . واستغرق ذلك العمل المضني أربع سنوات من الجهود المتواصلة ، حيث تم انتشال كثير من اجزاء السفينة ، واستخلاص ما لا يحصى من السلع والتحف النادرة ، التي كانت تحملها . وعكف علماء الآثار والمؤرخون والخبراء على دراسة مخلفات السفينة الغارقة منذ أربعة وثلاثين قرنا ، في سبيل تكوين فكرة واضحة شاملة عن تلك السفينة من حيث شكلها وتصميمها وحمولتها . ومن ثم استقراء تاريخ شعوب تلك الفترة ومقومات حضارتها ، والاحداث البارزة في ذلك العصر . وهنا



غواص تركي على عمق ١٥٠ قدما يقوم بتنظيف سبائك النحاس من حطام السفينة التي غرقت منذ ٣٤ قرنا .

اجتمع العلم والفن على هدف واحد، ألا وهو إماطة اللثام عن فترة من الحضارة الانسانية القديمة. فأبدع أحد الفنانين رسما للسفينة نابضا بالحياة تخيله لها قبل غرقها، وتوخى فيه إبراز الحقائق التاريخية التي توصل اليها المؤرخون وعلماء الآثار، الذين عكفوا على دراسة وفحص كل ما أمكن انقاذه من مخلفات السفينة من سلع وتحف متنوعة، تعكس حضارات الشرق القديمة، والحياة الاقتصادية والاجتماعية للمصريين القدماء، وشعوب بلاد ما بين النهرين، واليونان وآسيا الصغرى. وقد ألقت أضواء كاشفة على خصائص تلك الحضارات الزاهية، ولا سيما التجارة في عصر البرونز.

ان الكثير من التحف الأثرية، التي وجدت ضمن حطام السفينة، تكشف بشكل مثير عن حقبة تاريخية بارزة، حكم فيها الفرعون «توت عنخ آمون» مصر، وتشير بشكل واضح الى سقوط «طروادة»، التي حاصرها اليونانيون عشر سنوات، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها الا بعد اللجوء الى خدعة الحصان الخشبي سنة ١١٨٤ ق.م. ولقد كانت طروادة إحدى ملاحم العصور القديمة الكبرى، خلّدها الشاعر اليوناني الذائع الصيت «هوميروس» في إلياذته المشهورة.

حركة تجارية نشطة في عصر البرونز

يكتنف خط سير هذه السفينة التي ساقتها الأقدار الى نهايتها الأليمة كثير من الغموض، اذ لا يعرف على وجه التحديد من أين بدأت رحلتها، ولا أية موانىء أمتها هذه السفينة. فهذا الأمر ما زال في دائرة التخمين بين علماء الآثار، الذين عكفوا على دراسة كل صغيرة وكبيرة عن السفينة ومحتوياتها. كما ان تنوع السلع التي كانت تحملها جعل من الصعب تحديد جنسيتها وهويتها، مع أن بعض علماء الآثار يرجح انها كانت كنعانية.

في الوقت الذي غرقت فيه سفينة «اولو بورون»، نسبة للمكان الذي غرقت فيه في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كانت هناك شبكة واسعة من الطرق التجارية تربط بين أقوام متباينة في الجنس واللغة، تمركزت حول البحر الابيض المتوسط. هذه الطرق، من برية وبحرية، كانت تربط أواسط افريقيا بالشرق الأدنى وشمال أوربا. ويمكن القول ان السلع المتنوعة، التي حملتها السفينة قطعت مسافات طويلة برا وبحرا من اماكن متعددة حتى استقرت على متن السفينة المنكوبة الحظ. فركاز النحاس الذي صنعت منه السبائك يحتمل ان يكون قد استخرج من مناجم النحاس في قبرص الغنية بالنحاس، حتى لقد عرف النحاس باسمها أو من مناجم النحاس في شبه جزيرة سيناء. ويعتقد المؤرخون ان قبرص هي المعنية بالاسم القديم «الاشيا»، ان الشكل المميز لكتل النحاس بمقابضها الأربعة التي وجدت على السفينة، يعكس بصمات بلدان الشرق الأدنى عليها بوضوح. ففي أطلال قصر في مدينة «اوغاريت» القديمة على الساحل السوري عثر على قوالب شبيهة في أشكالها بكتل النحاس التي وجدت ضمن حطام سفينة «اولو بورون». كما عثر على ما يشبهها ايضا في جزيرة سردينيا البعيدة. ومهما يكن من امر، فان علماء الآثار البحرية يرون أن هذه السبائك تمثل حضارات غربي البحر الابيض المتوسط في العصر البرونزي المتأخر. ولوحظ ايضا ان مثل تلك السبائك كانت تصل الى مصر بكميات كبيرة، يشهد على ذلك الرسومات الفنية الرائعة في مدافن المصريين القدماء، التي تُرِي كميات منها مكدسة في المخازن الملكية، أو يقدمها سوريون كهدايا مفروضة، أشبه بالجزية، الى فراعنة مصر. أما مصادر القصدير في العصر البرونزي فتشير الدلائل الى انه كان يستخلص من مناطق كثيرة، تمتد من انجلترا غربا حتى الصين وتايلاند شرقا. وهذا لا يعني ان القصدير، الذي وجد في السفينة، قد جلب من تلك المناطق البعيدة. وتذكر النقوش الابيجرافية على ألواح الآجر، التي تعود الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ان القصدير كان ينقل غربا على الطرق البرية من مدينة في الشرق الأدنى عرفت باسم «اشنونا» الى الساحل السوري، حيث يشحن من هناك بالسفن التي تمخر عباب البحر المتوسط الى الموانىء المعروفة آنذاك. لقد كانت تجارة النحاس والقصدير رائجة بين الشعوب في الفترة ما بين القرن الرابع عشر والحادي عشر قبل الميلاد.

اما الجِرار الفخارية التي وجدت بين البضائع التي حملتها سفينة «اولو بورون» فقد كانت ذات طابع كنعاني أصيل، حيث ازدهرت الحضارة الكنعانية على طول الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط في فلسطين

وسوريا . وقد حملت السفينة اشكالا وانواعا كثيرة من الأواني الفخارية الاغريقية الصنع ، التي اشتهرت بها ميسينيا في العصر البرونزي ، وانتشرت في قبرص ووادي النيل ، وسوريا ، وسردينيا . كما اشتهر فخار قبرص في جزيرة قبرص وبعض أنحاء مصر . وقد اشتملت حمولة سفينة « اولو بورون » بالاضافة الى سبائك النحاس والقصدير والبرونز ، والأواني الفخارية ، على اصناف عديدة من السلع منها أدوات وأسلحة من البرونـز كالسيوف ، والحراب ، والسهام والهراوات ، وأخشاب الابنوس الثمينة ، والمواد الأولية ، والمواد الغذائية ، والعـاج ، وقشر بـيض النعـام ، والمراسي الحجـرية ، والصـمغ ، والكهرمـان ، والحلي كالأسـاور والأقـراط والمشابك ، والزجاج الفيروزي ، وكؤوس القرابـين الذهبية والزهريات ، والحبال المضفورة ، وشباك صيد السمك ، والأختام الاسطوانية الخاصة بشعوب بلاد ما بـين النهرين ، وقطع الأثاث ، والملابس . كل هذه الأصناف من السلع النادرة جمعت من مصادر كثيرة وكدست على متن سفينة طولها خمسون قدما ، ليروي كل منها قصة إحدى الحضارات الزاهرة ، التي قامت على شطآن البحر المتوسط منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة . لقد كان التبادل التجاري في أوجه في العصر البرونزي بـين تلك الحضارات ، فالحلي الكنعانية كانت منتشرة في

قطع من الصمغ الثمين وجدت في كؤوس القرابين بكميات كبيرة في حطام السفينة ، لا يعرف الغرض الذي يستعمل الصمغ من أجله ، مع انه عثر على الصمغ في كثير من مقابر المصريين القدماء .

مصر واليونان ، والاختام الاسطوانية كانت ترسل كهدايا الى فراعنة مصر ، كما انتشرت كؤوس القرابـين الكنعانية في كل من مصر واليونان ، وانتشر الفخار القبرصي في كريت ومصر ، وانتشرت المراسي الحجرية الخاصة في مصر وسوريا وقبرص .

البرونز والتقـــدم الحضاري

لقد أحدث اكتشاف مزج النحاس بالقصدير لتشكيل معدن أصلب وأقوى وأكثر مرونة ، هو البرونز أو الشبهان ، انقلابا جذريا في تـقـنية تصنيع المنتجات المعدنية في ذلك العصر السحيق ، بل أحدث تغيـيرا مشهودا في مسار تاريخ الجنس البشري . فالأدوات والأسلحة التي راحت تصنع من هذا المزيج الثمين منذ نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، بدأت تأخذ مكانة مرموقة في تلك العصور الموغلة في القدم ، وأخذت تحتل مكان تلك الأدوات البدائية ، التي صنعها الانسان من الحجر ، والخشب ، والعظم ، والنحاس . فالعمل الذي كان يأخذ من الفلاح اياما طويلة لانجازه ، أصبح بواسطة استخدام الأدوات البرونزية يستغرق ساعات . وقد انعكس اثر البرونز على بناء السفن بشكل واضح ، وخاصة في بناء هياكل المراكب التجـــارية ، وبذلـــك تمكنت السفن من نقل حمولات كبـيرة الى مسافات طويلة باستخدام طاقة الرياح فقط . هذا التقدم الكبـير الذي حققه اكتشاف البرونز ، انعكس بجلاء على التوسع الهائل في الحركة التجارية في عالم البحر المتوسط الشرقي . فالسفينة « اولو بورون » ، التي تم انتشالها ، غرقت في أوج النشاط التجاري في العصر البرونزي المتأخر ، الذي امتد من نحو ١٦٠٠ ق.م الى ١٠٥٠ ق.م ، عندما بدأ الحديد يحتل مكان البرونز كمعدن مفضل لصنع الأسلحة والأدوات الأخرى المتنوعة . لقد حملت السفينة الغارقة منتجات ذات صلة بسبع حضارات على الأقل ، منها الاغريقية الميسينية ، والكنعانية ، والقبرصية ، والمصرية ، والكاسية ، والآشورية ، والنوبـية . هـــذه المنتجات المتنوعة تؤكد عمق العلاقات الاقتصادية التي كانت قائمة بـين دول العصر البرونزي .



إكتشاف المعادن وطرق الاستفادة منها

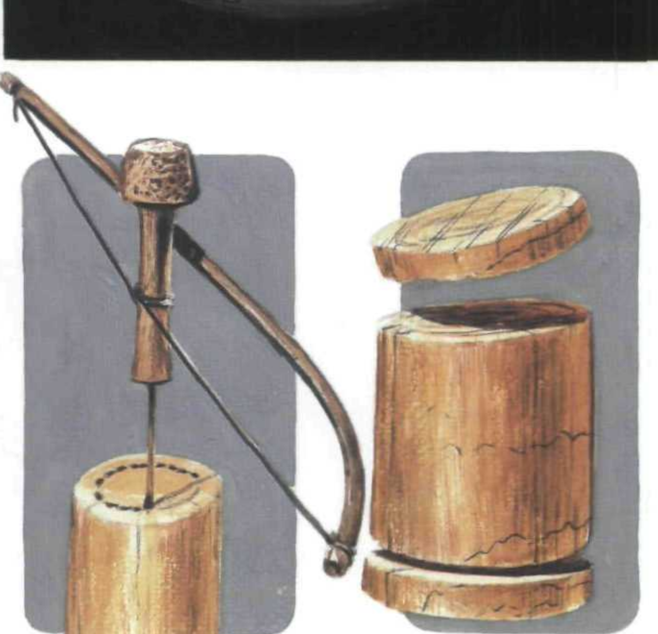
لقد جرى العرف بين المؤرخين على تقسيم عصور ما قبل التاريخ الى ثلاث مراحل: العصر الحجري، وعصر البرونز، وعصر الحديد. وباكتشاف المعادن، أتيحت للانسان امكانات ساعدته على تطوير



وتحسين طريقة صنع الأسلحة والأدوات، التي كان يستعملها في العصر الحجري، وانتاج أنواع جديدة منها متعددة الأشكال. ويعتبر هذا الاكتشاف من أهم الأحداث في تاريخ الانسانية وبداية لعصر حضاري جديد. لقد كان اكتشاف المعادن وليد الصدفة وحدها، كغيره من الاكتشافات، التي تمت في أحقاب ما قبل التاريخ، كالنار على سبيل المثال. فمنذ خمسة آلاف سنة لاحظ الانسان ان شيئا يسيل من الصخور المحيطة بموقده، وبمتابعة المشاهدة، تبين ان هذا الشيء، يتجمد عندما يبرد، مما أوحى اليه بامكان تشكيل هذه المادة أثناء انصهارها. فاذا ما احتفظت بشكلها بعد ان تبرد أصبحت صالحة للاستعمال في شكلها الجديد. هكذا تم اكتشاف المعادن، ولكن لا يعرف على وجه التحديد اين ومتى. وبعد ان تعرف الانسان الى ما للمعادن من خواص عجيبة، عمل على الحصول عليها بصورة أفضل، فدأب على تحسين طرق استخلاص المعادن من الخام الذي كان يحصل عليه بعناء كبير. وقد كانت جهود الانسان الأول في هذا المضمار بشيرا بمولد تقنية جديدة، ألا وهي صناعة التعدين. ومن النادر أن توجد المعادن عند استخراجها نقية بحالتها الطبيعية باستثناء

▶ قطع من العاج مأخوذة من أنياب الفيلة يصنع منها الحِرفيون المهرة علبا جميلة توضع فيها المراهم ومواد التجميل.

▼ فنانو البعثة الأثرية يوضحون في هذه الرسومات التقنية القديمة التي اتبعت في صنع هذه القوارير التي كانت تستخدم لحفظ المراهم ومواد الزينة.









أقدم «كتاب» على شكل لوح خشبي عليه كتابات مغطاة بالشمع.

بعض انواع منها، وهي الذهب، وكميات ضئيلة من النحاس، والحديد الذي تلقي به الشهب والنيازك عند سقوطها من الفضاء الى كوكب الارض. وهذه المعادن تستخرج في أغلب الأحيان، وهي متحدة مع عناصر اخرى، وتسمى في هذه الحالة بالمعدِن الخام. والمعدِن الخام الذي يستخلص منه المعدِن الصافي هو عبارة عن أوكسيد هذا المعدِن، أي يكون متحدا مع الأوكسجين. فالكوبرايت الذي يستخلص منه النحاس ما هو الا اوكسيد النحاس، وكذلك الكاسيترايت الذي نستخلص منه القصدير هو عبارة عن أوكسيد القصدير. وللحصول على المعدن نقيا يجب تحريره من الاوكسجين. وكان الانسان قديما يعمد الى صهر المعدن الخام بوضعه في افران بالتبادل مع طبقات من الخشب أو فحم الكوك، وأثناء الاحتراق يتحد الكربون الموجود في الفحم مع الاوكسجين المتصاعد من المعدن الخام ليعطي ثاني اوكسيد الكربون، الذي ينطلق في الهواء، ويبقى المعدن الصافي. وقد عرفت مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى كيفية صهر النحاس، وتحويله الى أدوات متعددة، في قوالب من الفخار، كالمناشير، والـمُدى، والأمواس، وابر الخياطة، والمسامير، والفؤوس، والبلطات، والمحاريث، والسيوف، والحراب، والسلاسل، والأطواق، والتماثيل، وغير ذلك. والنحاس سهل التشكيل، ولا يتآكل بسهولة، ويمكن الحصول عليه من خاماته بسهولة ايضا. ثم عرف الانسان كيف يمزج النحاس بالقصدير الذي كان يجلب من القوقاز وفارس وآسيا الصغرى، ليحصل على معدن جديد هو البرونز، الذي تتوفر فيه خواص النحاس والقصدير ولكنه اكثر صلابة، وهو يحتوي على حوالي ٨٠ـ٩٠٪ من النحاس و ١٠ـ٢٠٪ من القصدير. وانتشر استخدام البرونز في اوربا بعد معرفة سر تصنيعه، وراح يلعب دورا حضاريا مميزا حتى ظهر الحديد في الميدان، وانتقل الانسان بذلك الى عصر حضاري جديد.

قبسات من حضارات القرن الرابع عشر قبل الميلاد

من الحضارات التي لعبت دورا بارزا خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد الحضارة الميسينية الاغريقية، فقد شيد الميسينيون القصور الفخمة في جزيرة ميسينا التي ينتسبون اليها. وكان لهم نشاط ملحوظ في التجارة البحرية. ولهذا الغرض أقاموا مراكز تجارية متقدمة، واستعمروا جزر وشواطىء بحر ايجه والبحر الايوني، فامتد نشاطهم من آسيا الصغرى الى شواطىء ايطاليا الجنوبية. لقد كان هؤلاء الميسينيون الأغارقة هم أسلاف الاخيين، الذين خلد ابطالهم الشاعر اليوناني «هوميروس» في ملحمته «الالياذة»، التي تناولت



حصار مدينة طروادة، مثل اجاممنون، واخيل، واوديسيوس. وعرف عن الميسينيين حبهم لركوب البحر، لا بقصد الفتح بل للتجارة، فوصلت منتجاتهم الخزفية المزخرفة البديعة الأشكال الى كل مدينة في شرق البحر المتوسط وحتى جزيرة سردينيا غربا. ومع قلة المعلومات التي وصلتنا عن تجارة الميسينيين البحرية، الا انه يستدل من حمولة سفينة «اولو بورون»، التي اشتملت على منتجات خزفية ميسينية، ان الميسينيين كانوا ينقلون بضائعهم في مراكب أجنبية بالاضافة الى مراكبهم، التي كانت تجوب البحار القريبة والبعيدة لاستيراد القصدير الغربي بالاضافة الى قصدير القفقاس، واستخدامه لصنع المزيد من البرونز. وتؤيد المصنوعات المميزة المكتشفة، بما توفره من معلومات ثابتة، أهمية واتساع انتشار الانتاج المعدني والخزفي. وقد ظهر الكثير من مصنوعات الميسينيين البرونزية وجواهرهم وحجارتهم المنقوشة، ولا سيما الخزفيات ذات الرسوم المبسطة الشبيهة بالرسوم الهندسية، في مواقع كثيرة جدا، منها صقلية، وايطاليا الجنوبية، والسيكلاد، وسواحل آسيا الصغرى، وفينيقيا، حيث غدا مرفأ أوغاريت (رأس شمرا)، على الساحل السوري شمال مدينة اللاذقية الحالية، مركزا يعج بالنشاط حتى ليرجح انها كانت بمثابة مستعمرة، انطلق منها القصدير الى كل مكان، حتى بلغ بعض المراكز في وادي الفرات. وقد ورد اسمها في رسائل «تل العمارنة» في مصر في القرن الخامس عشر ق.م.، على انها مدينة كنعانية قديمة سكنت منذ العهد النيوليتي في الألف السادس قبل الميلاد، وعمل أهلها في التجارة، بين مصر وبلاد ما بين النهرين، فنَمَت، وازدهرت فيها صناعة الارجوان. واحترقت هذه المدينة اثر زلزال قوي حدث عام ١٣٦٥ ق.م.، ثم لم تلبث ان ازدهرت من جديد، حتى هاجمها الايجيون وقضوا على حضارتها حوالي ١٢٠٠ ق.م. واكتشف فيها عام ١٩٣٢ م قصور ملكية وعدد كبير من المخطوطات الفخارية بالكتابة المسمارية، وعرف القسم الشعري منها بملحمة اوغاريت.

لقد أثرى الميسينيون من تجارتهم البحرية ثراء كبيرا، انعكس على ما شيدوه من قصور وحصون في أرجاء ميسينا. ويبدو ان انصراف الميسينيين الى التجارة البحرية، جعل احتكاكهم بجيرانهم الحثيين الاقوياء، الذين استقروا في عمق اسيا الصغرى ضعيفا. والحثيون أسسوا امبراطورية واسعة امتدت الى بابل في بعض مراحلها، واكتسبوا بعض العناصر الثقافية من حضارات بلاد الرافدين. وفي القرنين الرابع عشر والثالث عشر تفوقت الامبراطورية الحثية على دولتي البابليين والآشوريين المنفصلتين وأقامت توازنا للقوى مع مصر. ومع ما بلغته الامبراطورية الحثية من عظمة وقوة، الا انها لم تلبث ان تضعضعت ثم انقرضت سريعا، ولكن بقيت لنا نصوص ونقوش تشهد بهذه العظمة القصيرة العمر، التي تعكسها آثار القصور الفخمة والحصون المنيعة والأسوار العالية. وقد ساعد الموقع الجغرافي للامبراطورية الحثية على ان يلعب الحثيون دور الوسيط التجاري بين سواحل البحر الأبيض المتوسط من جهة، وبلاد ما بين النهرين وفارس من جهة اخرى. ونعلم من النصوص الابيجرافية والنقوش التي خلفها الحثيون ان ملوكهم تنافسوا مع فراعنة مصر للسيطرة على البلاد التي استقر فيها الكنعانيون، وهي سواحل فلسطين وسوريا، لأنها كانت ملتقى الطرق التجارية، التي تربط مصر، وبلاد الرافدين، وآسيا الصغرى، ثم ان موانىء الكنعانيين كانت على اتصال وثيق بقبرص، وكريت، واليونان. وهذا يفسر لنا البصمات الواضحة للفن المصري الرفيع الذي انعكس على السفن التجارية الكنعانية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والذي اخذ فيه النفوذ المصري خارج مصر بالتضعضع تدريجيا تحت حكم الفرعون امينوفيس الرابع (اخناتون).

جهود أثرية مضنية ونتائج باهرة

التنقيب عن الآثار في قيعان المحيطات والبحار عملية مضنية، تتطلب الصبر والجلد، علاوة على الخبرة والمهارة، وهي تنطوي على مخاطر لا تقع تحت حصر، ثم ان المعنيين بالتنقيب عن حطام السفن، وخاصة ما ينتمي منها إلى العصور الموغلة في القدم، يستخدمون



رأس الملكة نفرتيتي، زوج أخناتون، التي صنع لها أمهر النحاتين تماثيل من الذهب الخالص، عثر على بعضها في تل العمارنة في مصر.

أساليب وأدوات ومعدات علمية متطورة، لاستخراج مخلفات تلك السفن، ثم دراستها دراسة موسعة، للوقوف على حضارات الأمم القديمة. ومع التقدم العلمي الهائل في الآونة الأخيرة تبلور علم جديد أطلق عليه «علم الآثار البحرية»، يختلف في أسلوبه ومنهجه وأدواته عن علم الآثار، الذي يتناول الحفريات الأثرية على اليابسة. ولم تلبث ان تأسست جمعيات ومتاحف، ومعاهد خاصة في بعض البلدان، تُعنى بالآثار البحرية، من بينها «متحف علوم الآثار البحرية» في مدينة «بودرم» بتركيا، و «معهد علوم الآثار البحرية» في مدينة كوليدج ستيشن في ولاية تكساس الامريكية، الذي أسسه الدكتور «جورج باس» بالتعاون مع بعض اساتذة «جامعة تكساس اي آند إم ــ Texas A & M University». ولهذا المعهد مركز في ذلك المتحف في مدينة «بودرم» التركية، يتولى التنقيب عن الآثار البحرية بالتعاون مع علماء الآثار والغواصين الأتراك. وقد تولى الدكتور «جورج باس» رئاسة البعثة الأثرية التي قامت بالحفريات في «أولو بورون» لانتشال مخلفات السفينة التي غرقت هناك منذ نحو ٣٤ قرنا، بمساعدة «جمال بولاك» التركي الاخصائي بالآثار البحرية. والجدير بالذكر ان الدكتور «جورج باس» أمضى ما ينوف على ٢٧ سنة في أعمال التنقيب عن حطام السفن الغارقة على السواحل التركية. وحول هذا الموضوع يقول: «علمتنا الخبرة الطويلة في مجال التنقيب عن الآثار البحرية ان افضل مصدر للمعلومات عن حطام السفن القديمة هم الغواصون، الذين يعملون على قوارب صيد الاسفنج التركية، فهم يفوقون في خبرتهم أعقد المعدات والأجهزة واكثرها تطورا، كالسونار، وجهاز الكشف المغناطيسي، وأجهزة التصوير، وغيرها». ويعود الفضل في اكتشاف سفينة «أولو بورون» الى الغواص التركي الشاب «محمد شاكر».

وقد شكلت بعثة أثرية ذات تخصصات متنوعة برئاسة الدكتور «جورج باس»، للقيام بدراسة الموقع، ومسحه، وتصويره، وإعداد الخرائط له، قبل القيام بالحفريات. وقد تكللت أعمال هذه البعثة بنجاح باهر فاق كل تصور، وتم استخراج كنوز لم يكن يحلم بها رئيس البعثة، رغم الصعوبات والمخاطر الجمّة، التي واجهها الأثريون والغواصون، خاصة وان السفينة استقرت على سفح منحدر عميق. ناهيك عن الجهود المضنية التي بذلت في تنظيف ورفع مخلفات السفينة الغارقة على عمق ١٧٠ قدما، وكان معظم حمولتها من النحاس، الذي بلغ وزنه نحو ستة أطنان، والذي يعتقد انه كان مرسلا من ملك «ألاشيا» أي قبرص، في رأي بعض المؤرخين، كهدية الى أحد فراعنة مصر، ودليل ذلك لوح الآجر الذي عثر عليه في «تل العمارنة»، ويتضمن رسالة من ملك ألاشيا الى فرعون مصر، تقول: «سأرسل اليك ٢٠٠ طالن من النحاس كهدية»، والطالن هو وحدة وزن قديمة تعادل ٦٠ رطلا. وهنا يتساءل الدكتور «جورج باس» قائلا: هل ترى قد وفى ملك ألاشيا (قبرص) بإرسال الهدية الموعودة الى فرعون مصر؟ وهل وصلت شحنة النحاس الى مصر أم كان سوء الطالع لهذه ان تهوي الى قاع البحر لتقبع هدية الفرعون هناك؟ أسئلة كثيرة تثيرها التحف التي أمكن استخراجها من ركام السفينة الغارقة في «اولو بورون»، وتنتظر الإجابة الشافية من علماء الآثار والمؤرخين المعنيين بحضارات حوض البحر المتوسط الشرقي □



لو تعلمين يا صغيرتي

شعر: عصام ترشحاني/حلب

أحسُّ يا مطارحَ الأحبابِ أنني غريبْ ..
في داخلي حَملتُ غُربتي
وسرتُ .. حَيثما مضيتُ
أسمعُ الصـدى
يوشوشُ الأزهارْ : ـ
« كأننا منْ قَبلُ نعرفهُ ...
كأنّما قَد جَاءَ باحثاً
هُناكَ طِفلتـهْ »
فتـهربينَ يا صغيرتي
يشـدُّكِ الخجَـلْ
وَالقلبُ ، زادَهُ الرجاءُ
يَرتمي عَلى شَواطئِ الأملْ ...

* * *

لو تَعلمينَ يا صغيرتيْ ...
لو تَعلمينَ لَوعةَ العذابْ
لكنتِ قَـدْ أتيتِ
منْ مَشارفِ الغيابْ
وأنتِ تَحملينَ بهجةَ انتظارْ
وَتَرقُبينَ سَاعةَ اللقاءْ
لانَّ فارسَ النهارِ يا صغيرتي
يَعيشُ في احتـضارْ
يَدورُ كالزمانِ في المكانِ
يَشربُ السَّرابْ ...

* * *

وتُقبـلينَ يا صغـيرتي
أراكِ كالقصَبْ
حَنونةً .. طراوةَ القصَبْ
أحسُّ في ارتعاشةِ النَّغمْ
تَذوبُ ألفَ آه ...
تبلّلُ الرِّمـالْ
وأنتِ تَحلُمينَ .. بارتحالِ خَطْوتينْ
وَتنزلينَ في الجفونِ كالحلمْ ..
كَلهفة العشّاقِ منَ سَفَرْ
كَدمعةٍ جميلةٍ منَ المَطَرْ ..
تُعانقُ الزَّهـرْ ...



الإمام فيصل بن تركي

(٠٠٠ - ١٢٨٢هـ)

بقلم : د. محمد بن سعد الشويعر / الرياض

هو الامام الثامن من سلالة الحكام السعوديين(١)، فيصل بن تركي بن عبدالله ابن محمد بن سعود، امام شجاع حازم، كان ممن حمل الى مصر من أمراء نجد في أيام استيلاء جيش «محمد علي» على كثير من بلاد العرب، وفر من مصر هاربا من الروم «كما يقول ابن بشر» سنة ١٢٤٣ هـ فعاد الى نجد، وابوه في الرياض، امير العارض وبعض البلاد المجاورة له. فقاد جيش ابيه لاسترداد البلاد الأخرى بضع سنين(٢)، وأظهر في ذلك ألوانا من البسالة والفطنة والحذر.

وفي عام ١٢٥٤ هـ قبل الامام فيصل شروط خورشيد باشا بعد معارك شديدة، وان يسلمه نفسه مشترطا عليه ان يصفح عن الوطنيين، ويؤمن أرواحهم وأموالهم، ففدى بنفسه عن ابناء رعيته وارسل الى مصر مع ابنيه عبدالله ومحمد، وشقيقه جلوي وابن اخيه عبدالله بن ابراهيم بن عبدالله في آخر رمضان من هذا العام(٣).

وقد تحدث ابن بشر واطال على مواقف الامام فيصل وشجاعته، لأنه عرفه عن كثب وعاصره، وعرف صفاته واعماله، حيث قال في عرض حديثه عنه: وانما اطلت الكلام على هذه الوقعات وما جرى لهذا الامام، وعليه من الحروب والوقائع، وما قضاه الله تعالى وقدره عليه من الحوادث والفظائع، ليعرف بذلك صدقه وثباته، وشجاعته وجوده، وبذله وبراعته، وانه ما اعطى الدنية الا بعد حروب كثيرة، ووقائع فظيعة شهيرة، وقتل رجال، وأخذ أموال، وكذلك صدق جنوده ومحبتهم له، ووفائهم بعهوده حتى سلمه القدر

١ ـ «تاريخ ملوك آل سعود» للأمير سعود بن هذلول ص/١٩.
٢ ـ «الاعلام» للزركلي ٥/٣٧٢.
٣ ـ انظر «صقر الجزيرة» للعطار ١/٢٠٠.



وأشخصه الى مصر . وفي طي ذلك سر عظيم لا يعلمه الا العزيز الحكيم ، فيجب التسليم لأمر الحق المبين ﴿ **واصبروا ان الله مع الصابرين** ﴾[٤] . ﴿ **فاصبر ان العاقبة للمتقين** ﴾[٥] . ﴿ **ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾[٦] .

وذكر لي انه خرج من مصر هذه المرة ، يريد المرة الثانية ، وكان أثناء اقامته عندهم يتردد عليه كثير من اهل مصر اذا كان في احد منهم ألم أو حُمَّى أو غير ذلك ، يأتونه يقرأ عليهم ، وكانوا يرون اثر الشفاء من قراءته ودعائه ، ومن اجل ذلك ازداد عندهم تكريما وتعظيما[٧] . لكن الامر التبس على سليمان الدخيل عندما قال : فقبضوا على فيصل في إحدى قلاع الخرج وذلك بعد حروب ووقائع كثيرة لم يفشل فيها فيصل ، بل ثبت فيها ثبات الأسد الجسور حتى غلبه القضاء والقدر ، بأن خانه جنده ، فأخذ أسيرا الى مصر عام ١٢٥٥ هـ[٨] . وهذه العبارة أخذها من راشد الحنبلي برمتها ولم يناقشها[٩] ، وعنه ايضا أخذ الزركلي في الأعلام[١٠] ، والأقرب للصحة في أخذه الى مصر عام ١٢٥٤ هـ وما يحيط بذلك ما ذكره ابن بشر لأنه عايشه ورصد الأحداث طرية في وقتها . وبمثل هذا جاء لدى الامير سعود بن هذلول بأنه استسلم هو وأبناؤه محمد وعبدالله وأخوه جلوي في عام ١٢٥٤ هـ ، وحُمل الى مصر واعتقل في قلعة السويس[١١] .

وقد أثنى الرحالة بلجريف في كتابه : « حكاية رحلة في وسط وشرق الجزيرة العربية خلال عامي ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣ م الموافق لعام ١٢٨٠ هـ Narrative of a year's Journey Through Central and Eastern Arabia 1862 - 1863. » على سيرة الامام فيصل وتنظيمه لمدينة الرياض ، وما يمتاز به من شخصية قيادية فذة استطلع ذلك خلال مكثه في الرياض ٥٠ يوما أو تزيد[١٢] ، وقد كان (بلجريف) يعتبر أول اوربي يصف الرياض ، ويتحدث عن حكامها من آل سعود ، وان كان قد سبقه الكابتن « سادلير » في عام ١٢٣٤ هـ عندما جاء ليطمئن إلى تدمير الدرعية ، ومر بمنفوحة فالرياض كما جاء في رحلته . ثم جاء الثالث الذي زار الرياض في عام ١٨٦٥ م الموافق لعام ١٢٨٢ هـ في أواخر ايام الامام فيصل وهو المقيم البريطاني في الخليج الكولونيل « لويس بيلي » ، الذي لم نطلع على وصفه لهذه الرحلة ، وهو لا بد ان يكون قد عرف شيئا عن فيصل ورصد وقائعه خاصة وان الامام فيصل قد امتد سلطانه الى الخليج وجعل له مركزا مهما في « البريمي » وأميرا من قبله ، اذ ان وفاته رحمه الله في ديسمبر ١٨٦٥ م ، الموافق رجب ١٢٨٢ هـ[١٣] ، وشخصيته قد استهوت الباحثين وطالبي المغامرة والشهرة . حتى جاء أمثال هؤلاء لزيارة نجد واستطلاع المعلومات عن حكامها من آل سعود . وفي هذا رد على فيلبي الذي قال عن نفسه بأنه أول أوربي يزور نجدا .

---

٤ ـ الأنفال ـ آية/٤٦ .
٥ ـ هـود ـ آية/٤٩ .
٦ ـ القصص ـ آية/٥ .
٧ ـ انظر « عنوان المجد » ٢/١٧٢ ـ ١٧٣ .
٨ ـ راجع مجلة : « لغة العرب » ج ٥ السنة ٣ ذو الحجة ١٣٣١ ص/٢٣٠ .
٩ ـ انظر كتابه « مثير الوجد في أنساب ملوك نجد » ٤٩ .
١٠ ـ « الاعلام » ٥/٣٧٢ .
١١ ـ انظر كتابه « تاريخ ملوك آل سعود » ٢٣ .
١٢ ـ راجع كتابه هذا عن وصوله للرياض ووصفه لها .
١٣ ـ « صقر الجزيرة » للعطار ١/٢٠٢ .



بعض من صفاته

كان فيصل رجلا دينا ميالا للبحث والدرس والتقشف، كما وصفه فيلبي، مطلعا تمام الاطلاع على مبادىء الدين، فقد حفظ القرآن في صغره، وكان يقضي الساعات الطوال في التهجد والتضرع الى الاله القدير، طالبا المعونة الربانية ليتغلب على متاعبه الدنيوية، ويا لها من متاعب تلك التي انصبت عليه وقد اصبح يد والده اليمنى في اعادة بناء الدولة وارساء الاستقرار وذلك بعد عودته من مصر[١٤].

وقد استقى فيلبي هذا الوصف من ابن بشر الذي كان معجبا بالامام فيصل فقد قال عنه: كان الامام فيصل، متع الله به، له مع ربه سر يلتجىء في الشدائد اليه، وثقة به في كل نازلة يرجوه ويعول عليه، وقد كان حفظ القرآن على ظهر قلبه، وهو صغير وحافظ على تلاوته والتهجد به شاب وكبير، وكان له حظ من الليل والقيام فيه، وكثير التضرع والابتهال عند خالقه وباريه، فكم حامت عليه حوائم الخطوب والآفات، وكم وقع في عظايم ومهلكات، يدخل فيها اليأس على الأتقياء والاكياس، فضلا عن اهل الولايات ورؤساء الناس، فيعجّل الله من ذلك بفرج قريب، ويجعل الله منه مخرجاً عجيباً، فمن ذلك مخرجه من محبس الترك المرة الاولى، ولطف الله به في خروجه من مصر، وفي سفره في البر والبحر، ثم ذكر له اربعة مخارج، وأزمات حلت به فأنقذه الله منها، بما منحه الله من رباطة جأش، وشجاعة وحسن تصرف في المواقف المدلهمة، وقدرة على تدبير الملك، وحسن سياسة للرعية[١٥].

وسيرة الامام فيصل تنبىء عما جبلت عليه نفسه من ديانة وورع، وحب للصدقات والعطاء، واستئناس بالعلماء وآرائهم، حيث لا يقطع رأيا دونهم، فكان يحبهم ويجالسهم ويدعوهم اليه في الرياض في شبه مؤتمرات، وقد اقاموا عنده في اول ولايته اكثر من شهر، فأظهر إعزازهم واكرامهم وتوقيرهم واحترامهم وكان على عادة آبائه وطريقتهم في تعهد الرعية بالنصيحة، وارسالها اليهم لكل أهل ناحية ورقة، لا يغفل عن ذلك في كل سنة[١٦]، وكان مشهورا بالتواضع ولين الجانب، محبا للغزو، حريصا على العدل، وجاء في وصف حافظ وهبة له، انه قصير القامة يميل الى السِّمَن، متوقد الذكاء كثير التواضع، شديد على عماله اذا رأى منهم انحرافا عن السياسة التي رسمها لهم[١٧].

من مظاهر القيادة عنده

لا شك ان الأحداث تفرك الرجال، والمصائب تفتق الحيل، وتذكي العزائم، والامام فيصل وهو الذي عاصر الاحداث وتسلط الاعداء على بلاده وآبائه، فكان جنديا يدافع الغازين والمحاصرين للدرعية، يبذل جهده من داخل خندقه، كما اشترك في معارك عديدة، فشاهد الامام عبدالله وهو يستسلم لابراهيم باشا، كما مر بخاطره عدة اشخاص من ابطال عائلته وهم يلقون مصارعهم في حرب الدرعية.

فلذا تولدت الشجاعة والفروسية فيه منذ حداثة سنه، فيذكر فيلبي نقلا عن ابن بشر بأن الامام فيصل برز اسمه لأول مرة، مشاركا في الحروب، مع الامام سعود في حملته عام ١٢١٨ هـ، التي أدت الى احتلاله مكة وهو آنذاك في خمسة عشر عاما من عمره[١٨]، فنشأ عسكريا متمرسا، ومقاتلا بارعا، وذكيا يقظا، بعد ان عصرته الأحداث، وخاض غمار الحياة مكافحا، تبتسم في وجهه الأحداث طورا، وتعبس طورا آخر، معتمدا على الله في كل صغيرة وكبيرة، وكأن لسان حاله يردد مع الشاعر قوله:

فيوما علينا ويوما لنا ... ويوما نسر ويوما نساء

ولذا فان حياة الامام فيصل ملأى بالأحداث، وغنية بالأمور المفاجئة التي تحتاج من الدارس العمق والايضاح. ولن نوفّي هذا الامام حقه من التمحيص والتحليل، ولكن كما يقول القائل: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.. وسوف نشير الى بعض الظواهر في

١٤ ـ راجع كتابه «تاريخ نجد» ص/١٩٤.

١٥ ـ راجع «عنوان المجد في تاريخ نجد» ٢/١٢٦ ـ ١٢٩.

١٦ ـ نفس المصدر ص ١٣٠.

١٧ ـ راجع كتابه جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٣٨.

١٨ ـ انظر تاريخ نجد ص ١٩٣.



سجل سيرته وهمته العالية . فمن ذلك :

★ استعماله الذكاء ، وترقبه للمناسبات ، فقد كان من الأسرى السعوديين الذين أرسلهم ابراهيم باشا الى مصر بعد سقوط الدرعية ، فظل فيها سجينا لمدة عشر سنوات ، يترقب الفرص ويتابع اخبار بلاده ، ويبدو ان نجاح والده الامام تركي واسترداده زعامة نجد ، كان اهم عامل شجعه على الفرار من سجنه والقدوم على والده ليشاركه في زمام الحكم[١٩] .

★ حبه الاستشارة في أموره العسكرية دائما ، سواء كانت استشارة دينية حيث ربط نفسه بالعلماء فأحبهم وعرض عليهم أموره ، وهذه عادة مطردة عنده ، أو استشارة عسكرية عندما تحدق به الامور ، ونموذج ذلك في حصار الرياض الذي فرضه على القائد المصري اسماعيل آغا مع خالد بن سعود في عام ١٢٥٣ هـ ومن معهما ، عندما قرر الامام فيصل بناء على نصيحة مستشاريه ان يقتحم المدينة ، فنصبت السلالم على نقاط كثيرة من السور ، ونجح المهاجمون في فتح ثغرة ثبتوا فيها أقدامهم ، غير ان المدافعين قاتلوا بشراسة ففشل الهجوم واحبط[٢٠] . فهو دائما يأخذ بمبدأ المشورة قدوة برسول الله ، ﷺ ، وامتثالا لما جاء في كتاب الله بالحث على المشورة .. ففي عام ١٢٥٢ هـ عندما كان في غزوة القصيم استشار خاصته عدة مرات ايضا[٢١] .

★ الاستفادة من والده في اسلوب الكر والفر ، وعدم الركون الى البقاء في العاصمة ، حيث ان اعداء الدولة كثيرون ، فلا بد ان يرتبط بأطراف البلاد ليتجدد ولاؤها ، وليمتزج بأهلها حوارا ومساعدة ، وهذا ما نلمسه في كثرة تنقلاته ، ولأن العاصمة هي هدف الجيوش المصرية التي تلاحقه في محاولة للقضاء عليه .

★ حرصه على الكتمان في جميع اعماله عملا بالأثر ، « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان » . استفاد من هذا الاسلوب في الخلاص ، مرتين ، من المعتقل بمصر والفرار الى نجد حيث رتب اموره مع اعوانه فلم يكتشف امره الا بعد هروبه . ثم عندما كان في غزو بالقطيف وجاءه نبأ اغتيال والده . أسرَّ بالامر لمن يثق به من قواده ، وكر راجعا للرياض للأخذ بثأر ابيه ولم يعلم خبره احد حتى وصل للرياض فجأة فزاول مهمته حتى تمكن من الاستيلاء على القصر وقتل مشاري .

★ فطنته وقدرته على كشف الرجال حيث صهرته التجارب وفي هذا الموقف فراسة خاصة حيث تمكن من ادراك مغزى « بلجريف » وتغييره الاسم ، لانه جاسوس ثم طرده من الرياض وقد بان انعكاسه في مذكرات « بلجريف » نفسه[٢٢] .

★ حبه للجهاد وحرصه على تهيئة النفوس المجاهدة معه بوعظها وترويضها على الثبات في المعركة ، وارسال النصائح الدينية لأطراف الدولة سنويا ليربطهم بدينهم ، وليؤصل فيهم عقيدة الإسلام التي هي أساس السعادة والتمكين في الدنيا ، والفوز في الآخرة ، والى جانب ذلك كان للمسجد في حياته شأن كبير ، تعميرا وعبادة ومجلس علم .

★ حرصه على توسيع رقعة الدولة واخضاع الخصوم ، وهذه موهبة فريدة لم يسند مهمتها الى غيره . فقد كان يحرص على ان يكون هو القائد في حياة والده ، ثم بعد ان تولى الحكم الى ان كبر فأسند بعض المهمات الصعبة لأولاده واحدا بعد الآخر ، بعد ان نَمّى فيهم خصالا عديدة ، من حسن القيادة والكرم ، وحسن التصرف في مجابهة الأحداث ، والعطف والشفقة على الرعية والعلم والديانة . فاستفادوا من والدهم في امور كثيرة هي من سمات القائد الناجح . وقد نمَّى هذه الروح فيه والده الإمام تركي ، فكما قضى وقته يتدرب ويشارك في الأعمال العسكرية والسياسية والادارية[٢٣] ، فقد أراد ان يستفيد ابناؤه منه ليمتد الفرع بامتداد الاصل ورسوخه .

★ إدراكه لأهمية الحصون والقلاع في اثبات دعائم الدولة والدفاع عنها ، فقد استفاد من الحوادث التي مرت ،

---

١٩ ـ الدولة السعودية الثانية للدكتور أبو علية ص ٢٨ .

٢٠ ـ انظر تاريخ نجد لفيلبي ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، انظر ايضا تاريخ الدولة السعودية لأمين سعيد ١٤٧ .

٢١ ـ الدولة السعودية الثانية للدكتور أبو علية ص ٢٨ .

٢٢ ـ نفس المصدر ص ٢٩ .

٢٣ ـ الدولة السعودية الثانية للدكتور أبو علية ص ٣١ .



وادرك اهمية التحصينات فحرص عليها في كل بلد يمتد اليه نفوذه، فقد بنى في اطراف الدولة تحصينات مهمة، حيث بنى قصر البريمي، وقصر الاحساء، ومكن قصر الرياض، وحرص على القصور في القصيم وغيرها.. فكانت ظاهرة الاهتمام بالقصور وتحصينها من ابرز اعماله، والى جانب ذلك كان يحرص على الذخيرة وايداعها هذه الحصون لأنها خير مكان يحفظها حتى يأتي وقت الحاجة اليها لتكون في متناول اليد.

★ حرصه على تطوير جيشه بأقوى ما يستطيع من الاسلحة لأنه أدرك أهمية السلاح في كسب المعارك.. ولذا استفاد من أسلحة خصومه بالاستيلاء عليها واستخدامها. فكان في جيشه عدة مدافع.. كما كان يملك في جيشه ايضا خيولا وإبلا قوية ومدربة.

★ قدرته على التغلب على المواقف الحرجة، ويظهر هذا في سيطرته على المواقف ضد الخارجين عليه، وفي اسلوبه التكتيكي، اداريا وعسكريا في استيعاب موقف الخصوم حتى يستدرجهم ويردهم الى حظيرة الدولة. يدفعهم لذلك سحر شخصيته، وصفحه عمن قدر عليه.

★ فهمه العميق في الأسلوب القتالي، نلمس هذا في اعداده الخطة للقضاء على قاتل أبيه، عندما وصل للرياض، فقد امر مقدمة الجيش باحتلال الابراج والمباني المحيطة بسور الرياض، وامر جماعة اخرى بالتسلق على السور والنزول داخل المدينة[٢٤]، كما أبدى تكتيكا قويا في حصار الرياض وحصار القطيف وأسلوبا متميزا في التحكم في المواقف الصعبة.

★ معرفته الوثيقة الصلة بالرجال واستمالة قلوبهم وجذبهم الى حظيرته في أشد المواقف تأزما كما حصل في استمالته لكل من: سويد راعي جلاجل، وعبدالله ابن رشيد وغيرهما.

٢٤ ــ صقر الجزيرة للعطار ١٩٩/١.

★ محبته للاصلاح والبناء، فقد أوجد أول دار لرعاية الايتام في الرياض وأثثها وأقام عليها رجالا يُعْنَون بها، ووفَّر لهم ما يحتاجون اليه من طعام وشراب ولباس، وكان يزورهم بين الفينة والفينة، ويجلس اليهم ويتحدث معهم، ليعوضهم عن حنان آبائهم[٢٥].

الى غير هذه من أمور هي فيه سجية، ولدى الدارسين له نموذج فذ في حسن الخلق والأدب والتواضع، وقاعدة من قواعد مظاهر الزعامة والقيادة.

سجية تلك فيهم غير محدثة
ان الخلائق فاعلم شرها البدع

حيث وطّد الامام فيصل الأمن في البلاد.

وفـــاته

يَعتبر الدكتور أبو علية ان فيصلا هو باعث الدولة السعودية الثانية، وان بدايتها من عودته من مصر المرة الثانية عام ١٢٥٦ هـ، وهذا الرأي لم يقل به أحد غيره، وقد ألف في هذا كتابا كاملا أسهمت في طبعه دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٣٩٤ هـ، وكأنه بذلك أغفل الفترة ما بين وفاة والده وهذا العام، لقد كف بصر الامام فيصل بن تركي في آخر ايامه، ومع هذا بقيت عزيمته وقوته تمدانه بالحيوية وقوة البأس، الى ان جاء يوم عشرين من شهر رجب عام ١٢٨٢ هـ الموافق ١١ ديسمبر سنة ١٨٦٥ م، فقد ذكر العطار نقلا عن دائرة المعارف الاسلامية بمادة ابن سعود: ان فيصلا توفي بالكوليرا في الثالث عشر من رجب عام ١٢٨٢هـ الموافق ٢ ديسمبر عام ١٨٦٥ م.

ويرى فيلبي ان عمره اكثر من سبعين عاما عندما توفي[٢٦] ولم أر من حدده غيره □

٢٥ ــ نفس المصدر ص ٢٠٢. وانظر ايضا تاريخ المملكة العربية السعودية لصلاح الدين المختار ٣٥٩/١.

٢٦ ــ انظر تاريخ نجد ص ١٩٣.





جرح في النفس

شعر: خليل فواز/القاهرة

هــلْ يَشــعرُ القلبُ انَّ النفسَ تـنفطـرُ
وأن جرحاً بها يدمي ويعتصـــرُ ؟!
جَـرحُ القلوبِ ـ على ما فيهِ ـ مُحتَملٌ
لكنَّ شَـخصاً جريحُ النفسِ يَحتـضرُ !
يا راقـداً في سكونِ الليـلِ مُختَلِجاً
حلا لكَ السهدُ أمْ أسرتْ بكَ الفِكَرُ ؟!
أقضَّني مَضْجعي .. والفكرُ يَفتكُ بي
كأنّني جَــذْوةٌ في النـارِ تَسْـتَعرُ !
لمْ أدرِ هلْ قَصُرَ المسعى .. أم انْفصَمَتْ
عُرى الزمانِ .. أم الأوهـام أحتـذرُ ؟!
ماذا تبقّى لدى النفس الجريحــة كـي
يُودي الجميعُ بـهِ .. الناسُ والقدرُ ؟!
أوغلتُ في خِدرِهـا والخوفُ يَسبِقُني
هلْ تَشعرُ النفسُ أمْ أودتْ بها العبرُ ؟!
أكلّــما سَـنَحَتْ في الأفـقِ بارقـةٌ
يشدّني من كَياني اليـأسُ والضّجَرُ ؟!
كأنّـني لمْ أكـنْ في الفكـرِ مُنطلقــاً
كأنّني لـمْ أكـنْ رأيـاً لـهُ خَطَــرُ ؟!
إنْ أجْـمَعَ النـاسُ في آرائهـمْ فعـلى
حبِّ البقـاءِ .. وقلْ للقحـمِ ينْتَحرُ ؟!!
ومـا تُغيَّـرُ في الانســانِ من صِفَــةٍ
قـلَّ الذي ببَـطـنِ الأرضِ أم كـثـروا !
أكلُّ مـا أبْــدعَ الانسـان ضيّـعـهُ
وقـعُ السنين بـهِ .. والنومُ والسهرُ ؟!
كأنّــني لـمْ أعـد حسّـاً فأحْـتَـضَـرُ
كأنّـني لـمْ أعـد روحـاً .. فأندثـرُ !

* * *

أصل المادة وماهيتها

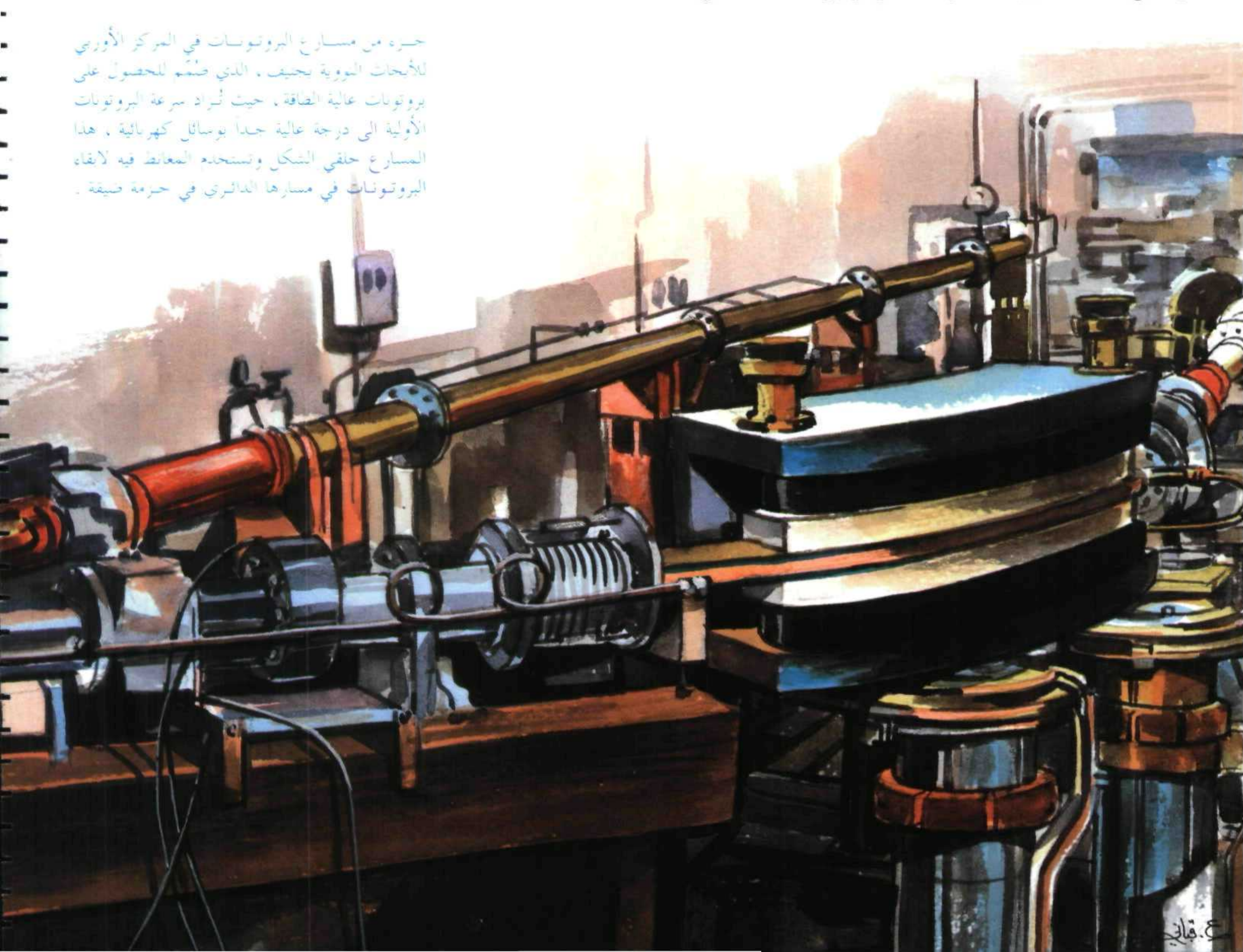
بقلم : د. محمد بن ابراهيم الجار الله / جامعة الملك فهد للبترول والمعادن

إنَّ البحث عن المركبات الأساسية غير القابلة للانقسام والتي تتركب منها المادة يعتبر من المعضلات الرئيسية في علم الفيزياء. ففي بداية هذا القرن اكتشف الفيزيائيون ان الذرة ليست وحدة أساسية غير قابلة للانقسام، فكل ذرة تحتوي على الكترونات تدور حول نواة، وتحمل هذه الالكترونات شحنة كهربائية سالبة. بعدها اكتشفوا ان النواة ليست وحدة أساسية غير قابلة للانقسام. فكل نواة تحتوي بروتونات وتحمل شحنة كهربائية موجبة، ونيوترونات لا تحمل شحنة كهربائية. وهذه البروتونات والنيوترونات مترابطة بقوة مع بعضها داخل النواة.

ومع تطوير المعجلات النووية الضخمة منذ الستينات الى الآن وتطوير الكواشف النووية الدقيقة معها، أجريت تجارب كثيرة لتفكيك البروتونات والنيوترونات الى مركباتها الأساسية.

واستطاع الفيزيائيون بتطويرهم المعجلات النووية ذات الطاقات العالية من اكتشاف جسيمات

جزء من مسارع البروتونات في المركز الأوربي للأبحاث النووية بجنيف، الذي صُمّم للحصول على بروتونات عالية الطاقة، حيث تُزاد سرعة البروتونات الأولية الى درجة عالية جداً بوسائل كهربائية، هذا المسارع حلقي الشكل وتستخدم المغانط فيه لابقاء البروتونات في مسارها الدائري في حزمة ضيقة.



نووية جديدة . والى الآن اكتشفوا حوالي ٣٠٠ نوع من الجسيمات ، ويجدون كل عام عدة جسيمات جديدة أخرى .

ويبدو انه ستكتشف جسيمات جديدة بتطوير المعجلات ذوات الطاقات الأعلى ، كما يظهر انه ليس هناك نهاية قريبة لهذه الاكتشافات .

ويمكن تقسيم هذه الجسيمات التي تم التعرف إليها الى ثلاثة مجاميع : اللبتونات (جمع لبتون ــ Lepton) والميزونات (جمع ميزون ــ Meson) والباريونات (جمع باريون ــ Baryon) وتدعى المجموعتان الاخيرتان مجتمعتان بالهايدرونات (جمع هايدرون ــ Hadron) أو بالجسيمات ذات التفاعل الشديد ، لأنها تترابط فيما بينها برباط شديد .

هناك ستة أنواع من اللبتونات منها الالكترون (ē) والميون (M) وهو يشبه الالكترون حيث يحمل شحنة كهربائية مماثلة ولكن كتلته تفوق كتلة الالكترون بـ ٢٠٠ مرة . والتاو (T) اكتشف حديثا . والنيوترينات (لا) المصاحبة لكل لبتون وهي جسيمات عديمة الكتلة أو ان كتلتها تقارب الصفر ولا تحمل شحنة كهربائية . ومع ان الميونات والنيوترينات ليست من مركبات الذرة الاعتيادية إلا أنها توجد في الطبيعة بوفرة . ويتولد عدد كبير من الميونات في اعالي طبقات الغلاف الجوي للأرض نتيجة تصادم الأشعة الكونية بمكوّنات الغلاف الجوي . وهذه الميونات التي هي النواتج الثانوية للأشعة الكونية تصل الى سطح البحر ويصطدم بعضها بأجسادنا محدثا فيها بعض التلف الاشعاعي . ويتحرر عدد كبير من النيوترينات نتيجة التفاعل النووي الاندماجي الذي يحصل في الشمس ، وهذه الجسيمات تخترق أجسادنا ولا تؤدي إلا الى القليل من التلف ، فأجسادنا وكل كتلة الأرض تعتبر سهلة الاختراق بواسطة هذه الجسيمات .

وبالإضافة الى مجموعة اللبتونات الستة هناك ستة لبتونات مضادة هي الالكترون المضاد والميون المضاد والتاو المضاد ، والانواع الثلاثة من النيوترينات المضادة . هذه الجسيمات المضادة لها شحنات كهربائية وصفات أخرى معاكسة ولكن لها نفس كتل رديفاتها من الجسيمات .

ان الباريونات هي اكثر مجاميع الجسيمات ، فقد اكتشف اكثر من ٥٤ نوعا منها ، فالبروتونات والنيوترونات هي من الباريونات ، ولكل باريون يوجد باريون مضاد كما هي الحال في اللبتونات . وهذه الباريونات المضادة تحمل شحنة كهُربائية معاكسة ولكن لها نفس كتل رديفاتها من الباريونات .

وأخيرا فان الميزونات هي كذلك من المجاميع الكبيرة (اكثر من ٦٠ نوعا) ومنها الموجبة والسالبة والمتعادلة كهربيا ، ولكل ميزون يوجد ميزون مضاد كما هي الحال في المجموعتين الأولى والثانية[1] . ويمكن للجسيم ورديفه الجسيم المضاد ان يفنيا بعضهما وذلك بتحولهما الى طاقة (موجات كهرومغناطيسية) .

نعرف الكثير عن هذه الجسيمات عدا كتلها وشحناتها الكهُربائية ، فكل هذه الجسيمات تقريبا غير مستقرة فهي تتحلل بصورة مباشرة إلى عدة جسيمات أخرى . والجسيمات الوحيدة المستقرة تماما هي الالكترونات والبروتونات ، والنيوترونات . فحتى النيوترونات ليست مستقرة فهي تتحلل الى بروتون والكترون ونيوترينو مضاد : ــ

نيوترون ← بروتون + الكترون + نيوترينو

ويدعى هذا التفاعل بتحلل بيتا (الكترون ذو طاقة) حيث انه أحد مصادر جسيمات بيتا . فالنيوترون الحر الوحيد يعيش ١٠٠٠ ثانية فقط قبل ان يتحلل ، ولكن تحلل بيتا لا يحصل (ممتنع) داخل النواة ، لوجود البروتونات داخل النواة ، فدوام النيوترونات داخل نوى الذرات الاعتيادية مرتبط بقاعدة الامتناع ، ولهذا فان استقرار نوى الذرات مبني على علاقة توافقية دقيقة بين النيوترونات والبروتونات ، فوجود البروتونات يؤدي الى استقرار النيوترونات ويمنعها من التحلل ، ووجود النيوترونات يؤدي الى استقرار البروتونات والتي تحمل

١ ــ يقول الله تعالى : ﴿ **سبحٰن الذي خلق الأزواج كلّها مما تُنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ سورة يسٓ ــ الآية ٣٦ .

الشحنات الكهُربائية الموجبة التي تؤدي الى تدافع كل بروتون عن الآخر .

وبعد الآن ثانية الى سؤالنا الأول ما هي النتيجة النهائية لوحدات البناء الأساسية غير القابلة للانقسام للمادة ؟ لقد تعرفنا إلى حوالي ٣٠٠ من الجسيمات ومن غير المتصور ان تكون كل هذه المئات من الجسيمات هي وحدات أساسية في بناء المادة ، ومن المحتمل ان معظم هذه الجسيمات وربما كلها هي جسيمات مركبة تتكون من عدد قليل من وحدات البناء الأساسية الحقيقية .

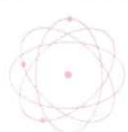
وللتعرف إلى هذه الوحدات الأساسية الحقيقية حاول الفيزيائيون تحطيم البروتونات الى أجزاء بقذفها بجسيمات عالية الطاقة جدا ، ولكن اذا كانت طاقة القذائف كافية لترك أثر في البروتون فهي كذلك كافية لتكوين جسيمات جديدة خلال التصادم (أي ان بعض الطاقة يتحول الى كتلة) وهذا التكوين للعدد الفائض من الجسيمات يُشكِلُ الأمر فلا يمكننا التأكد تماما من فرز الأجزاء المتكونة حديثا نتيجة التصادم بين أجزاء البروتون المتناثرة . وفي الحقيقة لم يتأكد الفيزيائيون من تجارب التصادم هذه في وجود جزء في البروتون مرشح ليكون في وحدات البناء الأساسية للمادة . وعادة ما يخرج من مثل هذا التصادم جسيمات البايونات والكايونات والمدات والدلتات وغيرها وكلها تعتبر اقل أساسية من البروتون .

ومع أن تجارب تصادم القوى المادية هذه فشلت في تفكيك البروتونات الى وحدات البناء الأساسية إلا أن بعض التجارب الاكثر دقة قد أعطتنا بعض الأدلة على ان هناك وحدات بناء متميزة داخل البروتونات ففي المعجّل المستقيم لستانفورد في الولايات المتحدة الامريكية قذفت البروتونات بالكترونات عالية الطاقة جدا ، واستخدمت الالكترونات كمجسَّات لاستشعار ما في داخل البروتونات . وقد أظهرت التجارب ان قذائف الالكترونات تحيد أحيانا بزوايا كبيرة مرتدة بشكل حاد من داخل البروتون . وهذا يشير الى وجود بعض الأجسام (أو اللب) الصلدة داخل البروتونات مثل ما أظهر حيود جُسَيمات ألفا عن بعض الذرات الى وجود لب صلد هو النواة داخل الذرة . يبدو ان البروتونات وكل الباريونات والميزونات الأخرى تتركب من عدة أجزاء متميزة . وعلى العكس من ذلك فانه يبدو ان الالكترونات والليبتونات الأخرى هي جُسَيمات غير قابلة للانقسام وليس لها تركيب داخلي . ففي تجارب حديثة أمكن تحسس الالكترونات بحزم من الجسَيْمات عالية الطاقة جدا ، وأمكن الوصول الى 10^{-18} متر من مركزه ، وحتى عند هذه الأبعاد القصيرة جدا لم يوجد تركيبات جزئية من أي نوع ، ولهذا يبدو ان الالكترون « جسيم النقطة » أي ان الالكترون ليس له أبعاد فهو حقيقة جُسَيم أساسي .

لقد اقترح علماء الفيزياء النظرية نموذجا اعتبروا فيه جميع الباريونات والميزونات المعروفة مكونة من عدة وحدات بناء أساسية ، وكان ذلك قبل اكتشاف الأدلة التجريبية التي أثبتت ذلك . وحسب هذه النظريات فإن التشابه الملاحظ بين الجسَيْمات في المجموعة الواحدة يعود الى التشابه في تركيبها الداخلي ، مثلها في ذلك مثل الذرات في مجموعة من مجاميع الجدول الدوري الذي يعكس التشابه في تركيبها الداخلي .

ومن اكثر هذه النظريات نجاحا نموذج الكوارك Quark الذي اقترحه العالمان « جيل مان » و « زويج » . وفي هذه النظرية اعتبرا ان جميع الجسَيمات مكونة من ثلاثة أنواع من وحدات البناء الاساسية تدعى بالكواركس (جمع كوارك) وهي (أعلى ـ UP) و (أسفل ـ down) و (غريب ـ Strange) وهذه الثلاثة تعود الى مجموعة خاصة بها تدعى « بمجموعة النكهة الثلاثية » . وبالطبع فان كل كوارك له كوارك مضاد ، مثله في ذلك مثل الجسَيمات الأخرى . ومجموعة الثلاثة المضادة تعود الى عائلة اخرى تعرف « بمجموعة النكهة الثلاثية المضادة » .

لعمل جُسَيم اعتيادي من الكواركس ينبغي لصق الكواركس بطرق متعددة ، فمثلا يتكون البروتون من اثنين من الكواركس اعلى « U » وواحد أسفل « d » والنيوترون يتكون من اثنين من الكواركس أسفل « d »



شـكل (١)

ذرة الهيدروجين (يد)
بروتون واحد
واليكترون واحد

شـكل (٢)

ايون الهيدروجين
(يد +)
بروتون واحد
بلا اليكترون

شـكل (٣)

ذرة الخارصين (خ)
٣٠ بروتوناً و٣٠ اليكتروناً

شـكل (٤)

ايون الخارصين (خ + ١)
٣٠ بروتونا
و٢٩ الكترونا

وكوارك واحد أعلى « U » . وتؤخذ الحيطة في تحديد الكواركس المرتبطة مع بعضها لتكوين الجسَيمات المختلفة ، ويمكن للمرء بناء جميع الباريونات والميزونات المعروفة وتفسير العلاقة بين فصائل الكواركس . ويمكن بالاضافة الى ذلك توقع بعض صفاتها من مثل معرفة معدل التفاعل للجسيمات وذلك من الصفات المفترضة للكواركس . ان التأكيدات التجريبية على نظرية نموذج الكواركس هي أدلة ظنية قوية الا انها غير قاطعة الدلالة .

ولكن هناك عيباً واحداً في نموذج الكواركس الا وهو ان الكواركس لم يكتشف بعد برغم الجهد الكبير من البحوث التجريبية . ولقد بحث عنه الفيزيائيون التجريبيون في شظايا تصادمات الجسيمات العالية الطاقة من المعجلات ، وبحثوا عنه في شظايا التصادمات الأعلى طاقة والمتولدة من تصادم الأشعة الكونية في جو الأرض وبحثوا عن الكواركس في عيّنات من الماء والهواء والغبار والزيت النباتي وصخور القمر .. الخ. لقد كانت الصفة المميزة لتحديد الكواركس في كل هذه البحوث هي شحنته الكهربائية الجزئية (+ $\frac{٢}{٣}$ شحنة الالكترون للكوارك « U » و − $\frac{١}{٣}$ شحنة الالكترون لكل من الكوارك « d » و « s ») بعكس الجسيمات الاعتيادية التي تحمل شحنة كهربائية تعادل شحنة الالكترون أو مضاعفاتها (٠ ، + ١ ، + ٢ ، + ٣ ، .. الخ.) . نعم لقد فشلت البحوث في الحصول على أي كوارك ولكن في لحظات محدودة جدا لوحظت أشياء يمكن ان تكون كواركس ، وفي هذه الحالات المحدودة فان الأدلة غير كافية لاثبات وجود الكواركس بشكل قاطع .

ويظن الفيزيائيون الآن ان الكواركس محجوزة داخل الجسَيمات الاعتيادية بشكل دائم ولهذا ليست هناك وسيلة لفصل الكوارك من الجسَيمات

من مثل البروتون . ومع ان تفاصيل نظام احتواء الكواركس مع بعضها غير معلوم لكن يبدو ان وجودها في موضعها هو بواسطة قوة شديدة بصورة غير معتادة تمنع هروبها ، وتدعى هذه القوة « بقوة اللون » وهذا ما سنناقشه فيما يلي .

ان نماذج الكواركس الثلاثة ومضاداتها التي تناولناها فيما مضى تعاني من بعض النقص . وقد ظهر هذا النقص عندما بدأ الفيزيائيون في دراسة الترتيب الدقيق للكواركس داخل الجسيمات الاعتيادية والقوى التي تربط هذه الكواركس مع بعضها . فبادىء ذي بدء هناك بعض الأسباب التقنية ذات العلاقة بقوانين ميكانيكا الكم اضطرت الفيزيائيين الى افتراض ان كل واحد من الكواركس الثلاثة يوجد بأشكال ثلاثة متغايرة وهذه الأشكال تختلف عن بعضها بعلامة جديدة تدعى اللون ـ Color . وطبعا ان هذا اللون ليس له ادنى علاقة بالألوان الحقيقية ، انه ليس الا صفة جديدة للمادة . ان الألوان المختلفة للكواركس هي الأحمر ـ red والأخضر ـ green والأزرق ـ blue . لذا فهنالك كوارك « u » أحمر وأخضر وأزرق ... الخ .

إن اللون من الصفات الدقيقة جدا وهو يختفي عادة داخل الجسَيم الاعتيادي . وكل الجسَيمات الاعتيادية عديمة اللون فهي تتركب من عدد من الكواركس بنسب خلط متساوية من الألوان الثلاثة مجتمعة . فمثلا أحد الكوارك داخل البروتون أحمر والثاني أخضر والثالث أزرق . ومع هذا فإن اللون يؤدي دورا مهما في نظرية القوة التي تربط الكواركس مع بعضها . وكما ذكرنا سابقا فانه من المعتقد ان قوى التجاذب بين الكواركس كبيرة جدا ، فالقوة بين الكواركس في البروتون مثلا تقدر بـ ١٠٠٠٠ رطل ، وهذه القوة الهائلة هي قوة اللون وهي تعمل بين كل الجسَيمات الملونة ، لذا فان مصدر هذه القوة هو اللون مثلها في ذلك مثل الكتلة التي هي مصدر قوة التجاذب الأرضي . ومثلها في ذلك مثل الشحنة الكهُربائية التي هي مصدر القوة الكهُربائية .

وقد برز تطوير آخر على نموذج الكواركس من دراسة القوى الضعيفة والقوى الكهرومغناطيسية . ولقد كان الفيزيائيون وما يزالون يطمحون الى ايجاد نظرية موحدة للقوى الطبيعية أي نظرية تعتبر فيها القوى وجوها مختلفة لقوة واحدة أساسية . وقد خطا الفيزيائيون قبل عدة سنوات الخطوة الأولى في هذا الاتجاه بايجاد نظرية موحدة للقوى الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية . ولجعل هذه النظرية تتطابق مع المشاهدات التجريبية كان عليهم افتراض وجود كوارك رابع يختلف عن الكواركس u و d و s . وقد دعي هذا الكوارك الجديد المفترض بـ (البديع ـ Charmed) .

الخلاصة

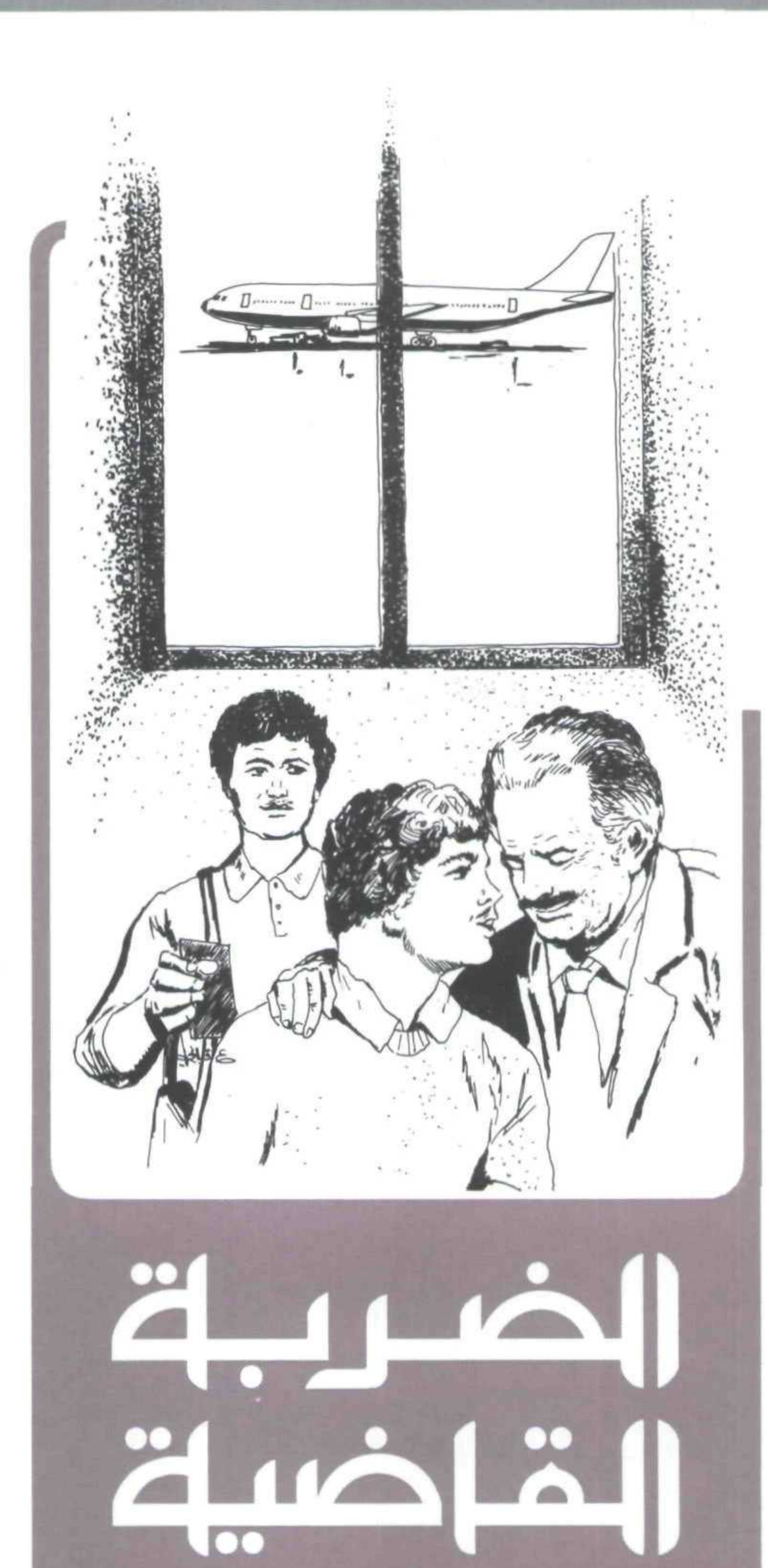
ان هذه الانواع من الكواركس (أعلى up وأسفل down وغريب strange وبديع charmed) ، وغيرها من الكواركس التي اكتشفها العلماء تأتي بثلاثة الوان مختلفة (أحمر red وأخضر green وأزرق blue) وبالاضافة الى ذلك فان لكل كوارك « كوارك مضاد » يأتي على اشكال مختلفة من اللون المضاد (الأحمر المضاد ـ anti red ، والأخضر المضاد ـ anti green والأزرق المضاد ـ anti blue) ، وبهذا يصبح المجموع الكلي للكواركس هو ستة وثلاثون . ويبدو ان تكاثر الكواركس لن ينتهي عند هذا الحد . فبعض النظريات الحديثة تفترض وجود عشرات الازواج « من الكواركس يضاف الى ذلك انواعها من الالوان ومن الكواركس المضادة . ان هذا التكاثر المستمر يثير التساؤل التالي : هل صحيح ان المادة مكونة من كل هذا العدد الكبير من وحدات البناء الأساسية ؟ فعند بحثنا عن وحدات البناء الأساسية النهائية للمادة ازيلت الحجب عن طبقات من التراكيب داخل طبقات اخرى من التراكيب ، فقد اكتشفنا نوى داخل الذرات ، وبروتونات داخل النوى ، وكواركس داخل البروتونات والنيوترونات ، فهل هناك طبقة أخرى داخل الكوارك ؟! □

شكل (١) الأنظمة الذرية لكل من الهيدروجين والهليوم .

شكل (٢) تركيب البروتون : إثنان من الكواركس u وكوارك d واحد .

شكل (٣) تركيب النيوترون : إثنان من الكواركس d وكوارك u واحد .

شكل (٤) تركيب البايون الموجب : يتركب من كوارك u وكوارك d مضاد (d) .



الضربة القاضية

بقلم: عزت محمد إبراهيم/القاهرة

لا يذكر انه افترق عنه منذ ان كان في نحو الثالثة من عمره، ولو كان قد حدث ذلك لكان على الأرجح يوما أو يومين، وفي سفر قريب لا عسر فيه ولا مشقة، ولا خوف منه ولا توجس، اما ان يفترق عنه لأيام تطول، وفي سفر بعيد محفوف بالمخاطر والأهوال، يحلق فيه في الفضاء، ويخترق فيه الأجواء، ويمتطي فيه متن الهواء، فهذا ما لم يكن يحسب ان يقدر له على احتمال، وما كان ايضا لتبلغ به القسوة ان يحول بينه وبين ما تحبه نفسه وتهواه، انها رحلة يصاحبه فيها أقران وأتراب وخلان وأصحاب، يشاهدون فيها الدنيا، ويسيحون في أرجائها، ويستمتعون بالحياة كما يستمتع سائر الناس. كلا، لم تكن تبلغ به القسوة ان يحول بينه وبين متع الحياة وهو يتفتح لاستقبالها، ولم يكن امامه مفر من ان يقسو على نفسه وان يروضها على ذلك.

نوديَ على ركاب إحدى الطائرات فلبّى بعضهم النداء حفيا، وتثاقل عنه البعض، وسار البعض يجر رجليه جرا، وكأنما يساق الى مجهول لا يدري ما تكون عواقبه.

وشاهد من لحظات الوداع ما كان يذيب قلبه ويفتت منه الكبد، ابنة تغمر امها بالقبلات ودموعها تسيل على الخدين مدرارا، ولا تكاد تخطو في اتجاه الطائرة خطوات حتى تعود كرَّة أخرى تغمر الخدين بالقبلات، وشيوخ وشبان، ورجال ونساء، لا يكادون يقدرون على احتمال هذه اللحظات، ولا تكاد تقدر نفوسهم على التعزي بما يكون من بعد الوداع من لقاء، ما اشق واصعب لحظة الفراق، وما اقل ما يعزي النفس فيها من أمل التلاق.

نظر الى وحيده فاذا به مع الأقران والأتراب والخِلّان والأصحاب، يضجون بالحياة، ويملؤون بالصخب المكان.

ــ صرت يا بني شابا ، ومن حقك ان تستمتع بالحياة ، ولكن ما أشق الفراق يا بني وأقساه .

نادى على صديق وحيده الأثير فجاءه طائعا ، وربت على كتفه في حنان ، وقال في كلمات تمتزج بما يفيض به فؤاده من أحزان : أوصيك به يا بني خيرا ، ليس لي في الدنيا سواه ، ولو مسه ضر فما أمرَّ ــ من بعد ذلك ــ طعم الحياة ، ان لي فيك ثقة ، وانني عليك في رعايته اعتمد ، خذ بالك منه يا بني ، انه لي قرة عين ، فلا تجعله يغيب عن ناظريك ، ابتعد به وبنفسك عن مواطن الريب والظنون ، فانها مدعاة للتهلكة ، وقد نجا من كان بنفسه عنها قد نأى ، لقد ربيته فأحسنت تربيته ، وانه لمستقيم ، وان خلقه قويم ، ولست أخشى عليه الا من قرناء السوء .

ورآهما يتناجيان فأقبل عليهما ضاحكا ، ودس بنفسه بينهما معاتبا ، وقال لأبيه في مودة واعزاز : لا تبتئس يا ابي هكذا ، ان هي الا ايام معدودات ، وان الناس يسافرون في كل يوم ويعودون ، ولا موجب لخشية أو توجس ، ولن انسى ما اوصيتني به : برقية عندما أصل ، وبرقية أنبئك فيها بعودتي فتلقاني في المطار ، وغمر وجنتيه بالقبلات ، ومضى مهرولا يلبي النداء على ركاب طائرته ، وعاد وحده كأنما يقتلع رجليه من الأرض اقتلاعا .

ولم تصله برقية تنبئه بالوصول ، فقال : شغلته شواغل الرحلة ، والتمس له الأعذار ، وقال : ان فاته ان يبعث ببرقية تنبىء بوصوله فلن يفوته ان يبعث بما ينبىء بالعودة حتى يكون في استقباله في المطار ، وبَذَل غاية ما يملك من جهد حتى لا يترك نفسه نهبا للوساوس والظنون ، أو ينزلق الى مهاوي الجنون .

ومضى على الفراق أسبوع لا يدري كيف مضى ، ولا يدري كيف تمكن من احتماله ، ولا يدري كيف تواتيه القدرة على احتمال ما تبقى من أيام ، وساء منه الحال ، حتى ظن الناس به الخبال : كان ينهض في هدأة الليل كما كان قد اعتاد ان يفعل ، ويتجه الى غرفته لعله يكون قد رمى بالغطاء فيسدله عليه ، أو يكون قد ألقى بالوسادة بعيدا فيعيدها الى مكانها ويريح من فوقها رأسه ، وينظر الى الفراش خاليا فيعود من حيث جاء يكاد يطفر الدمع من عينيه .

أو قد مضى على الفراق أسبوع ؟ بل هو على الحقيقة لم يمض ، وانما كان يدفع ايامه من امامه دفعا ، ويزيحها عن طريقه ازاحة ، يوما بعد يوم ، وربما ساعة بعد ساعة ، يستيقظ من النوم فيقول ها هو يوم قد بدأ فمتى ينتهي ، وتمضي منه ساعات فيقول ها هو ذا قد كاد ينتصف فمتى يؤذن بزوال ، ويولي اليوم ويدبر فيتنفس الصعداء ليصنع في يوم جديد ما صنع في سابقه .

ومضى بعد الاسبوع يومان ، ودق جرس الباب فاشتدت معه دقات قلبه ، وفتح الباب فوجد من يمد اليه يده ببرقية ، وتناولها بيد مرتعشة : لم تنته بعد ايام الرحلة فماذا تراه قد حدث ، أتكون هي البرقية الاولى قد تأخرت عن موعدها ؟ أيكونون قد اختصروا ايام الرحلة لسبب من الأسباب ؟ أم يكون قد وقع شر ومكروه ؟

وفض غلاف البرقية بيد لا تكاد تقوى على الامساك بها ، ووقعت عيناه على سطورها فوقع مغشيا عليه ، ولم يكن حامل البرقية قد تحرك من مكانه لعل ان يكون فيها بشرى فيناله على حملها خير ، واستعان بالجيران فجاؤوا ــ على عجل ــ مهرولين ، وظلوا له ملازمين حتى أفاق من غاشيته ، ومرت عينا واحد منهم على سطور البرقية فعرف سر ما حدث ، كانت تنبىء عن موعد وصول الجثة وتشير الى الطائرة التي تحملها .

هذه هي البرقية التي كان يعد الأيام على أصابعه

عدا ، ويدفعها من امامه دفعا ، ترقبا لوصولها ، ولو كان يعلم ما بها لقال لا كانت ولا كان اليوم الذي تصل فيه .

ومضى ذلك اليوم الحزين كما تمضي امثاله من الايام ، ومضى الناس كل الى غايته ، قد أدوا ما عليهم من واجب ، ونالوا ما يستحقونه على سعيهم من شكر ، ولم يبق في المسكن سواه ، لا يؤنس وحشته – الى حين – غير صديق وحيده الأثير .

تراءت الذكريات فتراءت له ايام حلوة هانئة قضاها في هذا المسكن مع رفيق عمره ، وصنو نفسه ، يستذكران الدروس ، تارة ، ويلعبان ويمرحان أخرى ، ويقصان ويحكيان ثالثة ، ويرسمان الخطط ، ويمضيان مع الأحلام الى غير انتهاء ، ويقدران فتضحك الاقدار .

وامسك نفسه ان يجهش بالبكاء فيزيد النار ضراما ، ويضيف الى الأحزان أحزانا ، وجعل يلقي على سمعه في نبرات حزينة ما كان : لم يكد يستقر بهم المقام في الفندق الذي نزلوا فيه حتى صاح من بينهم جميعا : الى البحر ، هيا بنا اليه ، نغسل عن أنفسنا أوضار السفر ، ونتهيأ من بعده للاستمتاع بما نحن مقبلون عليه ، ولم تفلح وسيلة في إثنائه عن غرضه ، ولم تجد حيلة في صرفه عن غايته ومقصده ، وذهبوا الى البحر جميعا ، فكان من بينهم اول من ألقى بنفسه بين احضانه .

وثارت ثائرة البحر فجأة ، وأرغى وأزبد ، وهاج وعربد ، وارتفع الموج ، وبدا كأنما يريد ان يناطح السحاب ، وغالب الموج فغلبه فكان من المغرقين .

حدث ذلك كله في مثل لمح البصر ، ولم تتح لأحد فرصة لمجرد تدبر ما حدث فضلا عن محاولة التفكير في انقاذه ، وكأنه ما جاء الا لهذا الغرض وليس لشيء سواه .

وكانت هذه هي بداية الرحلة ، وكانت هي ايضا نهايتها ، وما جاء من بعدها من ايام وقد انقضى من اجراءات واتصالات وتهيئة واعداد .

قال وهو منكّس الرأس ، زائغ البصر : أجل انه قدره ، وليس من القدر فكاك وليس منه مهرب أو مفر .

وغرق في صمته فلم يشأ ان يخرجه منه ، وجلس الى جانبه يجتر معه الأحزان . لم يبق – اليوم – على قيد الحياة ، من يعلم قصته سواه ، بدأت وهو في نحو الثالثة من سنوات الحياة ، وانتهت وهو زهرة تتفتح لاستقبالها .

لم يكن قد جاوز مرحلة الشباب بعد حين بدأت قصته معه ، وها هو اليوم يذكرها بكل تفاصيلها مرحلة مرحلة منذ بدأت ، وسيظل يذكرها حتى آخر رمق مما هو مقدر له من الحياة .

كان له زوج لم تدم لها الحياة طويلا ، واختطفها الموت اختطافا وهي ما تزال في ميعة صباها وريعان شبابها ، وخلفته من بعدها وحيدا ، لا يؤنس وحشته الا طيف خيالها ، أو ما يتردد بين جوانحه من ذكراها ، وكان لا يرى الا حزينا ، لا يكاد يفتر له ثغر ، أو تنفرج له عن ابتسامة شفتان ، وكان يختلف إلى احدى المقاهي بين الحين والحين ، لا ليروح فيها عن نفسه ، ولكن ليجتر – وحده – ما يعتمل في نفسه .

وكان يجلس – في ذاك اليوم البعيد – في ركن قصي ينأى بنفسه عن صخب المقهى ، وما يأخذ فيه رواده مما يشغلون به وقت فراغهم ، ولم يلبث ان أحس بيد غضة رقيقة تتمسح في ساقه ، ونظر فاذا بطفل صغير يتعثر في خطاه ، ولا تكاد تقوى على حمله ساقاه ، ولا يكاد يعرف من الكلمات الا القليل .

وأنِس بالطفل وانس الطفل به ، وخرجت من بين شَفَتيه كلمة « بابا » فاضطربَ لها ، وأحس لها في أذنيه وقعا أثار فيه الدفين من المشاعر والأحاسيس ، وحمله بين يديه فأجلسه على ركبتيه ، ودار في خلده انه ابن أحد

رواد المقهى ولا يلبث ان يأتي اليه فيسترده شاكرا حسن صنيعه معه .

وطال به الوقت واذا به يتبين ان الطفل الصغير قد ضل عن ذويه ، وآن له ان ينصرف وهَـمَّ بأن يترك الطفل في رعاية عامل من عمال المقهى حتى يهتدي اليه ذووه ، ولكنه خشي عليه سوء المصير ، وان يكون قد ألقى به الى مجهول لا يدري عواقبه ، وحمله على كتفه وسار به في الشوارع القريبة ، وحفيت من السير قدماه ، وما بدا له بصيص من أمل يسير على هداه .

وأثار دهشته واستغرابه ان الطفل لم يصرخ في طلب ابويه صنيع من كان في مثل حاله ، وكأنما وجد فيه الضالة التي كان ينشدها فاستراح بين ذراعيه ، ومسح الدمع الذي كان يترقرق في عينيه .

واختمرت في ذهنه فكرة ، وأبى عليه ضميره ان يخرجها الى حيز التنفيذ حتى تفرغ من جعبته كل حيلة ، وحتى تنفد من عنده كل وسيلة .

واشترى للطفل حلوى فازداد به أُنسا وازداد به تعلقا ، وعاد به الى المقهى وجلس حيث كان يجلس لعل أحدا يأتي في طلبه ، ومضى الوقت وطال ، وما تغير وما تبدل الحال ، وما بدا له بصيص من أمل ، وما لاحت في الأفق ومضة من رجاء ، قال لنفسه : لقد ابرأت ذمتي ، وأرضيت ضميري ، ولا لوم علي بعد ذلك ولا تثريب .

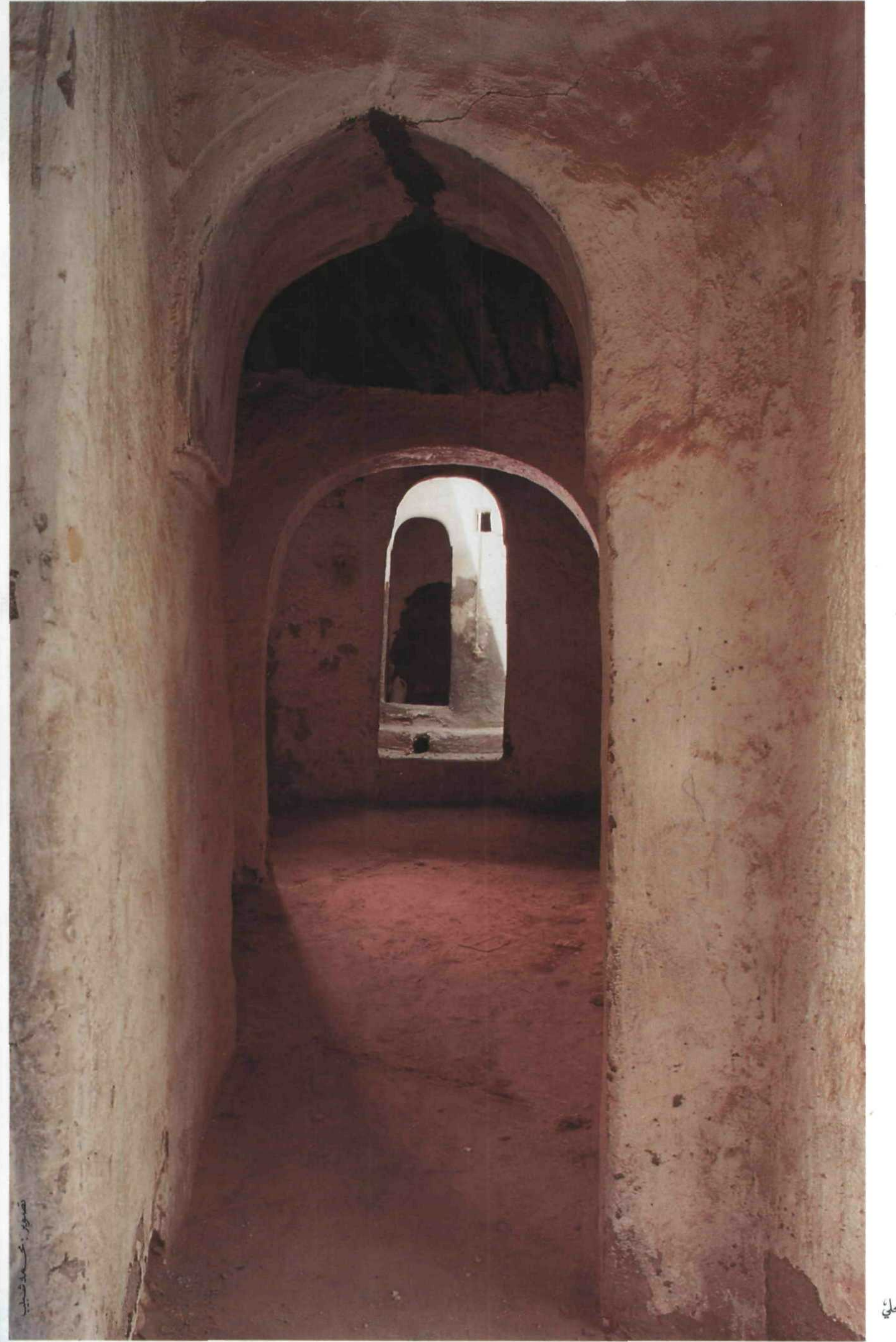
وكان من بعد ذلك ما كان ، حمله الى واحدة من ذوي قرباه ، واستودعها اياه ، وأجزل لها في العطاء كي تصونه وترعاه ، وما تخلف يوما عن رؤياه ، وما كان يعرف له أباً سواه ، وكان اذا أحس بمقدمه أسرع اليه وهو يتعثر في خطاه : جئت لي بالحلوى ، ولم يكن يخفى عليه ما يترقرق في عيني قريبته من الدمع من التأثير .

وشب عن الطوق ، واشتد منه العود فضمه اليه ، وجاء به الى مسكنه تمضي بهما عجلة الحياة ، وما زال يعجب ان لم يذكر ابدا حياته السابقة ، وكأنما قد محيت من ذاكرته محوا ، فلا يعرف الا أباه الذي أنشأه ورباه ، وامه التي رحلت قبل ان تتفتح على الحياة عيناه .

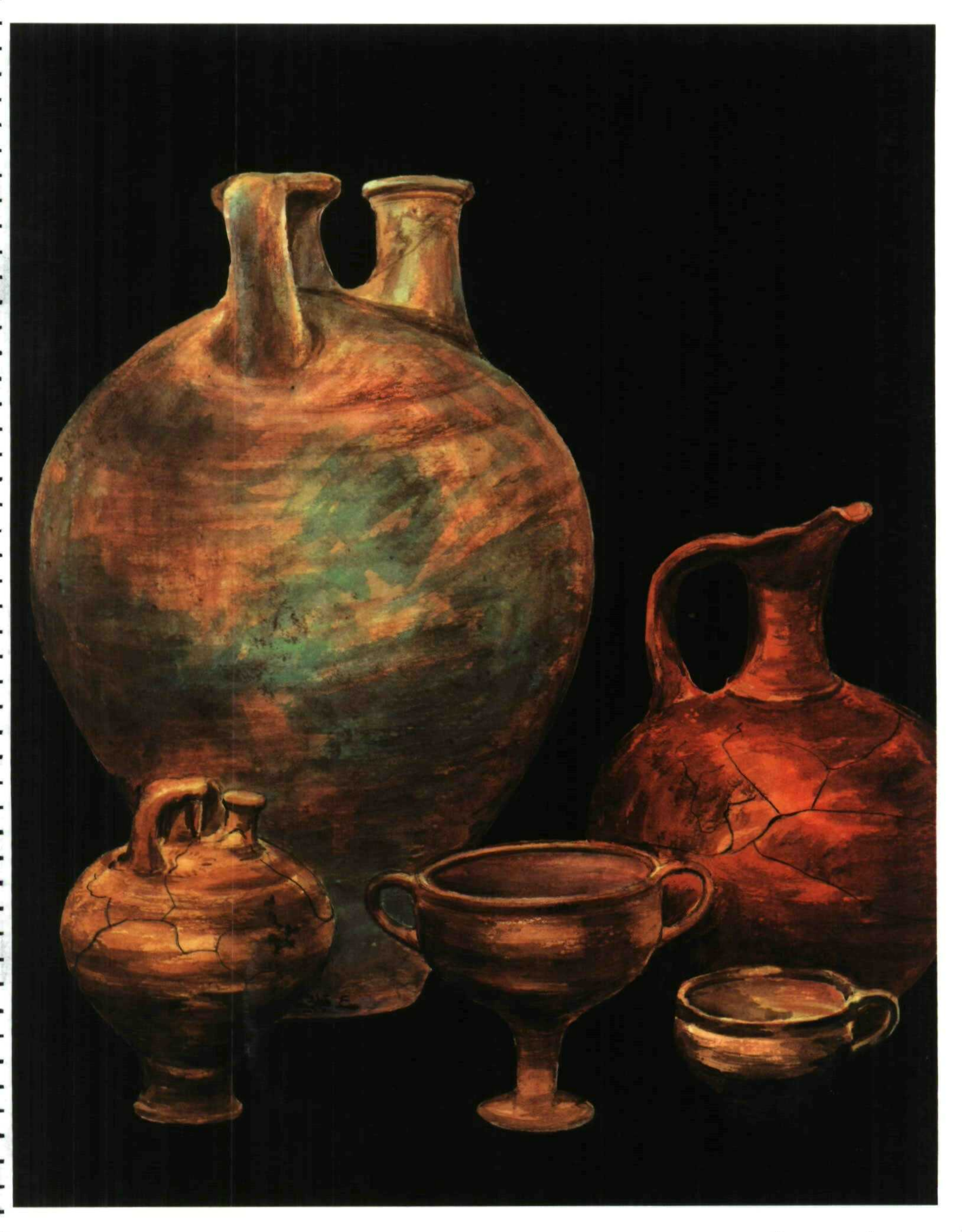
لو كان ابنه من لحمه ودمه ما أحبه قدر هذا الحب . ولو كان أباه الذي انحدر من صُلبه ما هام به مثل هذا الهيام . كان كلاهما يبحث عن ضالته فوجدها في الآخر فهدأت سورة نفسه وسكن ما فيها من خوف وتوجس . وكان كلاهما قد كاد ان يضيع في زحام الحياة ، فوجد في الآخر طوق النجاة . لو لم تهبه له المقادير ، لدمرته الوحدة وساء منه المصير .

بـدأ وكأنما قد تقدم به العمر في ايام قدر ما تقدم بسواه في أعوام ، وطال به الصمت وزاد معه انحناء الظهر حتى يخشى عليه من الضر والأذى ، قال في حنو واشفاق : اعتدل في جلستك يا عماه لا يصيبنك من الانحناء أذى ، قال في صوت كأنه الحشرجة : لا أقدر يا بني ، ولست ابالي بما يصيبني من ضر أو يلحق بي من أذى ، فما أصبح للحياة عندي معنى ، وما أصبح لي فيها رغبة أو اشتهاء ، أرأيت يا بني حلبة الملاكمة ، أرأيت حين يتلقى احد المتلاكمين من خصمه ضربة قاضية ، انه ينحني على موضع الالم ، ويرتمي في جانب الحلبة لا يقوى على حراك ، ولا يقدر على نهوض ، ولا مهرب له من الهزيمة ، ولا مفر له من التسليم بها ، انا هو يا بني ذاك الذي تلقى تلك الضربة القاضية .

وهَـمَّ بأن يفتح فمه بكلمات يشد بها أزره ، ويقوي بها عزيمته فلم يجد فائدة ترجى فآثر الصمت ، ووأد في فمه الكلمات فماتت على شفتيه . وآن له ان ينصرف فقام يتحامل على نفسه وهو يقول : لا احسب ان تطول به ــ بعد ذلك ــ الحياة ، فقد انقطع ما كان يربط بينه وبينها من أسباب . وأطلق لمشاعره الحبيسة العنان ، ففاضت بدموعها العينان □



اجع مقال: التراث المعماري المحليّ



راجع مقال: "روائع عصر البرونز"